انهيار إسرائيل من الداخل

دكتور عبد الوهاب المسيرى



دار المعارف

انهيار إسرائيل من الداخل

د. عبد الوهاب المسيرى



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

مقدمة

الظاهرة الصهيونية ظاهرة مركبة لها أبعاد كثيرة، فقد ظهرت كفكرة فى أوربا فى أواخر القرن السابع عشر، وتم بلورتها فى منتصف القرن التاسع عشر، ثم ترجمت نفسها فى البداية إلى المنظمة الصهيونية العالمية فى أواخر القرن التاسع عشر، ثم أخيرًا إلى الدولة الصهيونية فى منتصف القرن العشرين. وهى دولة توسعية ضمت كل أراضى فلسطين، وقامت بغزو لبنان وظلت تحقق الانتصارات العسكرية حتى عام ١٩٦٧، ثم بدأت تلحق بها الهزائم ابتداءً بمعركة الاستنزاف وانتهاءً بالانسحاب من جنوب لبنان مرورًا بهزيمة ١٩٧٣ والسقوط فى «المستنقع اللبنانى» على حد قول الصهاينة، وقد واجهت الصهيونية أشكالاً مختلفة من المقاومة العربية منذ عام ١٨٨٢ حتى الوقت الحاضر.

والصهيونية كحركة ودولة كان عليها التعامل مع جهات كثيرة: الاستعمار الغربى والدول الغربية (كى تنتقل الصهيونية من نطاق الفكرة إلى نطاق التطبيق)، ويهود شرق أوربا (كى يمكن نقلهم إلى فلسطين ليشكلوا المادة البشرية الاستيطانية)، ويهود العالم الغربى (كى يقوموا بدعم المستوطن الصهيونى). أما بالنسبة للفلسطينيين، أصحاب الأرض التى سيطبق عليها المشروع الصهيونى، فقد أعد لهم الصهاينة مخططًا للإبادة والطرد، وقد نجحت الصهيونية فى أن تتلون حسب الجهة التى تتوجه لها.

الظاهرة الصهيونية إذن ظاهرة متعددة الأبعاد، ومع هذا يميل كثير من الدارسين لهذه الظاهرة أن يتعاملوا معها على المستوى السياسى

وحسب دون التعرض لأبعادها الأخرى. وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نتناول بعض هذه الأبعاد التى عادةً - وليس دائمًا - ما تتجاوز البعدين السياسى والاقتصادى رغم أنها تلقى كثيرًا من الضوء على السلوك السياسى للصهاينة.

يتناول الفصل الأول (الديموجرافيا اليهودية) بعض الإشكاليات الخاصة بالديموجرافيا اليهودية سواء تعريف من هو اليهودى أو علاقة الأبعاد الديموجرافية بيهود شرق أوربا الصهيونية. ويقدم هذا الفصل أيضًا دراسة تاريخية مقارنة لبعض الإحصاءات تبين زيف الادعاء الصهيونى أن أعضاء الجماعات اليهودية فى شوق دائم للعودة إلى فلسطين. ويتناول الفصل الثانى (النبوءات الصهيونية) المزيد من الأوهام الصهيونية والنبوءات التى لم تتحقق، وهى تفوق فى عددها بمراحل بعض النبوءات التى تحققت. ويتناول الفصل الثالث (الاستعمار الاستيطانى الصهيونى) بعض جوانب هذا الاستعمار، خاصةً الحل الإمبريالى (الصهيونى) للمسألة اليهودية، وإدراك المستوطنين الصهاينة لطبيعة المقاومة الفلسطينية لهم.

ويتناول الفصلان الرابع (العنف الصهيونى) والخامس (الانتفاضة) المقاومة الفلسطينية والاستجابة الصهيونية لها، وكيف أن تصاعد العنف هو فى واقع الأمر تعبير عن اليأس وفقدان الاتجاه. ويتناول الفصل السادس (الهيكل) قضية الهيكل التى أثيرت مؤخرًا. فيشرح الفصل ما هو الهيكل ومكانته الحقيقية فى الوجدان اليهودى، ويشير إلى حقيقة طريفة غابت عن الكثيرين وهى أنه لا يوجد هيكل واحد وإنما عدة هياكل. ويختتم الفصل بالإشارة إلى المنظمات التى تسعى لإعادة بناء الهيكل. ويتناول الفصل السابع (انهيار إسرائيل من الداخل) هذه القضية الشائكة ويبين أبعاد التآكل الذى أصاب الكيان الصهيونى من الداخل، ومع هذا يؤكد

الفصل أن هذا التآكل لن يؤدى بـالضرورة إلى الانـهيار. أمـا الفصـل الثـامن والأخير (متفرقات) فيضم – كما يدل اسمه – بعض الدراساتُ المتفرقة ذات الدلالة المختلفة.

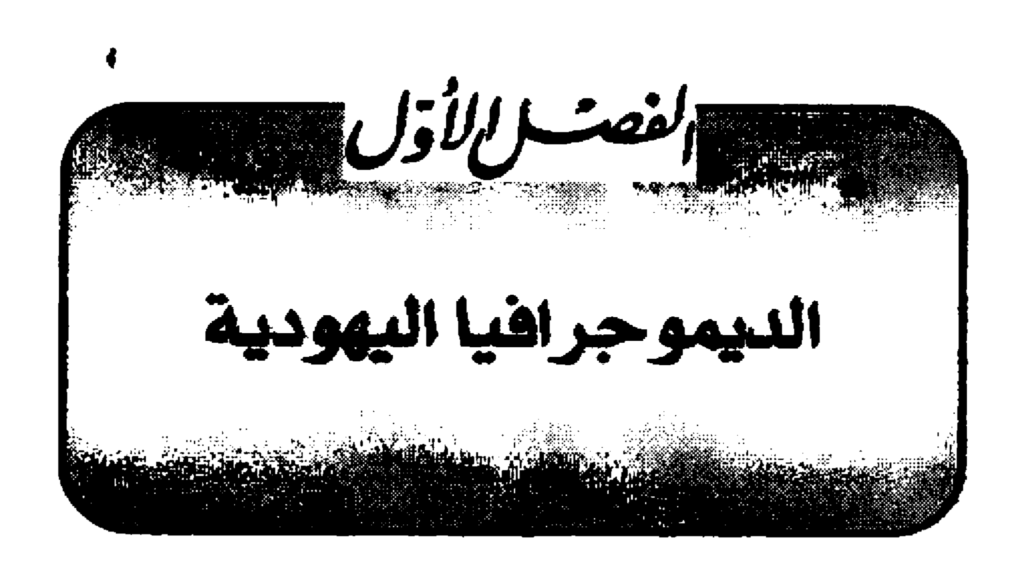
وقد نشرت هذه الدراسات فى جريدة الاتحاد (الإمارات) على مدار عـام تقريبًا، فأعدنا تصنيفها وترتيبها وكتابـة بعضـها، بحيـث ضم كـل فصـل مجموعة مقالات تتناول الجوانب المختلفة لموضوع واحد.

والله من وراء القصد.

د. عبد الوهاب المسيرى

دمنهور – القاهرة

ديسمبر ٢٠٠١



الفصل الأول

الديموجرافيا اليهودية

يهودى بشكل ما

يتصوَّر الكثيرون أن اليهود كتلة بشرية متجانسة، وأن ثمة قالبًا يهوديًا يمكن أن نضع فيه كل اليهود. ولكن الدراسة المتأنية تبيِّن أنه لا يمكن الحديث عن اليهود بشكل عام، ولذا فإنى أفضِّل الحديث عن «الجماعات اليهودية»، وهى جماعات مختلفة، تكتسب خطابها الحضارى من المجتمع الذى تعيش فيه. وهنا يطرح السؤال نفسه: لِمَ نسميها جماعات يهودية، وليست جماعات وحسب؟ الإجابة على هذا السؤال صعبة بعض الشيء إذ يمكننا القول إن ما يجمعها هو عقيدتها اليهودية، ولكن ثمة مشاكل كثيرة ستواجهنا. وابتداءً يجب أن نشير إلى أن ثمة فارقًا بين اليهودية واليهود. فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها. ولا يوجد مجال لترادف الواحد بالآخر (هل يوجد ترادف بين الإسلام والمسلمين أو بين المسيحية والمسيحيين؟). وعدم الترادف هذا يزداد عمقًا فى حالة اليهودية التى عرَّفت اليهودى بطريقة عقائدية، كما تفعل كل الأديان (اليهودى هو من يؤمن باليهودية). ولكنها عرَّفته أيضًا بطريقة عِرْقية، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية (اليهودى هو من يولد لأم يهودية).

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية: إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية. ولكن إلى جانب ذلك بينَّت أن هناك جماعات يهودية هامشية لا حصر لها ولا عدد. فهناك على سبيل المثال لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساسًا بنسخها المختلفة عن

تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيَح. وهناك أيضا القرّاءون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل. وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تين (السماء) ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تمامًا. ويقدمون لأسلافهم قرابين من لحم الضأن، أما هم فلا يمانعون في أكل لحم الخنزير. ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تمامًا مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن نقارن بين عينتين: إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودي في العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعًا صغيرًا هامشيًا ومنعزلاً. وقد لاحظت الأولى عن قرب نتيجةً للوقت الطويل الذي قضيته في الولايات المتحدة، أما الفلاشاه فقد قرأت عنهم الكثير.

ينتمي يهود الولايات المتحدة، بالدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل إشكنازي (ألماني / روسي/ بولندي). وتوجد قلة من السفارد، والقرّانين، والكرمشاكي (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضًا بعض الأمريكيين السود الذين يُدعون «العبرانيين السود» (يقال إن بعضهم ثمرة الجماع بين بعض أصحاب

المزارع اليـــهود وخليلاتـهم السـود والبعـض الآخـر ثمـرة التـهود)؛ وهـؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن إفريقيا عن طريق شـرق قنـاة السـويس، ويدَّعـون أنـهم هـم العـبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنــهم هـم وحدهـم أصحـاب الحـق فـى اسـترداد إسـرائيل والاسـتيطان فيـها وحكمـها. وتوجـد جماعـة منـهم فـى شـيكاغو هاجرت أعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا في جوار ديمونا في أماكن أخرى. وبطبيعـة الحـال فـإن إسـرائيل والمؤسسـات الحاخاميـة لا تعـترف بأمثـال هـؤلاء، ولـذا فـهم يشـكلون أقليـة منبـوذة داخـل كـل مـن الدولـة الصهيونية والجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يـهود إثيوبيـا، وملامحـهم لا تختلـف مـن قريـب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هنـاك بينـهم مـن تنويعات، فهى تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعـات الموجـودة فـى مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا موراه، وهى جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومـن الناحيـة الدينيـة، ينقسـم يـــهود الولايــات المتحــدة إلى قسـمين أساسـيين: يـهود إثنيـون لا أدريـون، ويـهود متدينـون، وهـؤلاء ينقسـمون بدورهم إلى إصلاحيـين ومحـافظين وتجديديـين وأرثوذكـس (ويوجـد بعـض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيـون فى الولايات المتحدة يتعبدون فى المعبد اليـهودى (السـيناجوج)، ويرأسـهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر، ولا يكترثون بالطعام الشرعى أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساسًا خارج نطاق اليهوديـة الحاخاميـة، ولا يعرفـون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخاميـة؛ فشـعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا، فـهم يقيمـون شـعائرهم

كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية). ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يُقال لهم قسيم)، وهي جمع كلمة «قسيس» بالعبرية، ولا أدرى هل يستخدمون هذه الصيغة العبرية في إثيوبيا نفسها، أو أنها شكل من أشكال التدليس الصهيوني، فكُتبت الكلمة على هذا النحو حتى لا يضطر المؤلف إلى كتابة كلمة priests الإنجليزية بكل إيحاءاتها المسيحية؟ وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودي يسمَّى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله! (هل يمكن اعتبارهم يهودا أساسًا؟). أخبرني صديق فلسطيني يعمل في موشاف (مزرعة تعاونية) أنه كان هو وأصدقاؤه الفلسطينيون يؤدون صلاة الجماعة، ففوجئوا بأحد العمال الفلاشاه ينضم لهم ويحاول تأدية الصلاة، فهو يعرف بعضها وحسب. وتصوري أنه من مناطق يسكنها الفلاشاه قريبة من المناطق الإسلامية، فتأثروا بها. المهم انتهت القصة بأن قام صاحب الموشاف بطرد الجميع.

ومن ناحية اللغة، فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والآرامية. كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات. أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون بالأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية)، ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة من هاتين الجماعتين خطابها الحضاري وفلكلورها الذي ينبع- في حالة يهود أمريكا - من محيطهم الحضاري الحالي (الأمريكي)، أو من محيطهم الحضاري السابق (روسيا - بولندا - إنجلترا). أما في حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضاري الإثيوبي الإفريقي. وفي حين أن اليهودي الأمريكي يرتدي البنطلون «الجينز» ويأكل «الهامبرجر» ويرقص الديسكو ويعيش في منزل عصري، وقد يُطعِّم حديثه

ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم باليديشية، كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التى كانوا يرتدونها فى شرق أوربا، فإن يهودى الفلاشا يرتدى شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة فى منطقته، ويعيش فى كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة. والوضع الاجتماعى ليهود أمريكا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون يختلف تمامًا عن وضع الفلاشا ورؤيتهم.

لهذا كله، وجدت أن مصطلح «يهودى» مصطلح عام للغاية، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه. ولعل عدم تحدد مصطلح «يهودى» يظهر فى عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يصنفون على أنهم «يهود بشكل ما» (بالإنجليزية: جويش سام هاو Jewish somehow) وهى عبارة خالية من المعنى، تدل على مدى الإخفاق فى تعريف اليهودى.

□□□

الديموجرافية اليهودية وظهور الصهيونية

حينما نتناول المسألة اليهودية وظهور الصهيونية فى العالم الغربى، فإننا - إذ كنا لا نؤمن بنظرية المؤامرة والشر اليهودى الأزلى - نبحث عن الأسباب السياسية والاجتماعية التى أدت إلى تفشى الظاهرتين المتلازمتين: العداء لليهود والصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر فى الغرب. ومن الأسباب السياسية والاجتماعية التى لم ينتبه لها كثير من الباحثين البُعد الديموجرافى لهاتين الظاهرتين، ولكثير من الجوانب الأخرى لتواريخ الجماعات اليهودية.

تقول التقديرات التخمينية إن تعداد العبرانيين فى عام ١٠٠٠ ق. م بلغ نحو ١,٨٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ

فيه. ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سكانها التكنولوجي آنذاك كان منخفضًا، فكيف كان من الممكن أن تمد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين)؟ ولعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمى في الشرق الأدنى القديم جعلها نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة في البلاد المجاورة، أو كتجار في حوض البحر المتوسط، أي إن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة «الشتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالي عام ٧٢٠ ق. م، ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشوري والبابلي (٧٢١ ق. م و ٥١٧ ق. م على التوالي) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألفا. وهذا الرقم الأخير يُلقي بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التي يهزمونها وحسب، مما يعني أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم في مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجَّرين العبرانيين في البلاد التي هُجِّروا إليها (ومن هنا الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» والتي يجب أن تصبح في واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين في فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد تختلف الصورة تمامًا إذ يبلغ عدد اليهود آنذاك - حسب بعض التقديرات التخمينية - حوالي ٨ ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يكن يتجاوز خمسة ملايين ويمكن أن نشير إلى طفرتين سكانيتين في تاريخ

أعضاء الجماعات اليهودية وهذه أولاها. وهي تعود لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التي وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفرنسيين قاموا بحركة تبشيرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوّروا مفهومًا لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التي جاءت بعدها). كما أن ما يسمى الأمن الروماني «باكس رومانا» الذى ساد المناطق التى كان يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قد وفّر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذى ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعنى ابتعادهم عن المهام القتالية، مما يعنى أنه لم يسقط من بينهم قتلى. ويُقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعًا ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضارى ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة سكانية هامة تحرص المراجع الصهيونية على إخفائها وهى أن غالبية اليهود كانت تعيش خارج فلسطين قبل سقوط الهيكل (٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط هى فلسطين والباقى خارجها، إن أخذنا بالرقم ٨ ملايين). وهذا يدحض الأسطورة الصهيونية التى تذهب إلى أن شتات اليهود كان قسريا وأنه حدث بسبب سقوط الهيكل (مركز اليهود واليهودية)، وأنه لم يكن مجرد انتشار طوعى، بحثًا عن الرزق كما يحدث لكثير من الجماعات البشرية.

وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل في القرن الأول الميلادى إلى ما بين ٨ ملايين فى أحسن تقدير وخمسة ملايين فى أسوئه، كان من المفروض أن يصل عددهم من خلال التكاثر الطبيعى إلى خمسين أو ربما مائة مليون فى القرن السادس الميلادى مع بدايات العصور الوسطى فى

الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق. ولكننا نفاجأ بأن عددهم لم يتجاوز مليونًا أو مليونين (كان أغلبهم يتركزون فى العالم الإسلامى). ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بأن أعدادًا كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد اعتنقت المسيحية وانصهرت فى مجتمعاتها (وهذا يتناقض مع الرؤية الصهيونية التى تذهب إلى أنّ اليهود لا يندمجون فى مجتمعاتهم قط ويؤثرون العزلة فى جيتواتهم، وهى أسطورة أخرى تدحضها الوقائع الإحصائية فى الماضى والحاضر والمستقبل (كما سنبين فيما بعد).

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية ١٦,٧٢٤,٠٠٠ كما هو مبيّن فى الجدول التالى:

السنة	العدد الإجمالى
١٨٠٠	٢.٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٦,٠٠٠.٠٠٠
١٩٠٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٦,٥٠٠,٠٠٠

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسُّن الأحوال الصحية فى العالم الغربى نتيجة الثورة الصناعية، خاصةً بين اليهود نظرًا لأن مستواهم المعيشى كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافى العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى

الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الـذى يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات اليهودية كانت قوية نظرًا لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذى يُشجِّع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويُقال إن زواج اليهود فى سن مبكرة كان من أهم العناصر التى ساهمت فى تزايد عددهم. وأخيرًا لم تشهد الأماكن التى تركزت فيها الجماعات اليهودية فى الفترة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٨٤ أية حروب، كما أن كثيرًا من الدول كانت لا تجنِّد أعضاء الجماعات اليهودية. كل هذه العوامل أدت دون شك إلى تزايد عدد أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف فى غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون فى شرق أوربا، خاصةً بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث فى روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسى غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدى إلى ظهور جو معاد لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التى تطالب بتخليص أوربا من اليهود. وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوربا الوسطى والغربية.

وقد أدى تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة فى البلاد التى كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية نظرًا لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد فكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالى) يصلحان كمثالين على ما نقول. فى عام ١٨٤٦م كان عدد يهود فيينا (التى كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) ٣,٧٣٩ يهوديًا فقط لا غير،

وصل عددهم إلى ١٥ ألفًا عام ١٨٥٤، وبلغ ٢٠١،٥١٣ عام ١٩٢٣ م. ولاشك في أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون - إن صدقًا أو كذبًا - أن هذه الكتلة هي مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعي، مما ولد موقفًا معاديًا لليهود ورغبةً في التخلص منهم باعتبارهم فائضًا بشريًا غير منتج وغير منتم (وهذا هو ذاته الموقف الصهيوني). وفي هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفي النمساوي المندمج تمامًا في مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيوني الذي تبنى كثيرٌ من اليهود المندمجين في بلاد وسط أوربا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعًا عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التي كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية (الذين يتحدثون اليديشية وهي رطانة ألمانية دخلت عليها بعض الكلمات العبرية والسلافية، وتُكتب بالحروف العبرية)، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعورًا عميقًا بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج في مجتمعاتهم الجديدة.

ويمكننا الآن أن نتناول الوضع في إنجلترا. كان يوجد في إنجلترا عام ١٨٥٣ حوالي ٢٥ ألف يهودي فقط لا غير، وصل عددهم ٢٤٢ ألفًا عام ١٩١٠م ثم حوالي ٣٠ ألفًا، وكان عدد كبيرٌ من المهاجرين تجارًا وحرفيين صغارًا، أدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن وانتشار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمع الإنجليزي وحسب، وإنما بينهم كوافدين (من الأشكناز) وبين اليهود الأصليين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشعر بأن الوافدين يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعة صغيرة من المولين الدوليين - ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم - حققوا نفوذًا قويًا في جوهانسبرج (في جنوب إفريقيا). وقد وصفوهم بأنهم «الحثالة الحقيقية» لأوربا، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة، ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يُلاحَظ أيضًا أن أعدادًا كبيرة أيضًا من يهود إنجلترا، خصوصًا يهود اليديشية، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدَّى هذا إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل من أقصى اليمين والرجعية، وأقصى اليسار والثورية، في وقت واحد.

في هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربا، وقدمت حكومة بلفور، الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمَّى «قانون الغرباء» الذى ووفق عليه عام ١٩٠٥ للحد من الهجرة.

وفي هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة في حيّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) في لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني، توجه هرتزل أساسًا إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني كرقعة تلتقي فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفي عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول

أمام اللجنة الملكية، حيث قدّم حلاً صهيونيًا مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقًا من هذا، عُرض مشروع شرق إفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث في تاريخ الصهيونية، الذى جاء انتصارًا للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيونى على يهود العالم.

عالم آخذ فى الاندثار

نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (فى عددها الصادر فى ٢٠ أبريل ٢٠٠٠) مقالاً بقلم سيفر بلوتسكر بعنوان «عالم آخذ فى الاندثار»، وكلمة «عالم» هنا تشير إلى «عالم اليهود». وإذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد واجهوا فى نهاية القرن التاسع عشر مشكلة تزايد أعدادهم فإن الآية قد انعكست تمامًا فى القرن العشرين حتى وصلت حد الأزمة فى الوقت الحاضر.

وقد أشرنا إلى حدوث طفرتين سكانيتين بين الجماعات اليهودية، الثانية بدأت بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ مما أدى إلى تحول اليهود من جماعات دينية إثنية صغيرة إلى جماعات يبلغ بعضها عدة ملايين، وكانت الجماعات اليهودية فى شرق أوربا تُعد من أهم الجماعات من الناحية العددية. ولكن رغم استمرار أعدادهم فى التزايد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى إلا أن العوامل التى أدت إلى هذا التزايد اختفت تمامًا، كما ظهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود إلى الإنجاب بل وأدت إلى تناقص أعدادهم. ومن أهم هذه الأسباب تصاعد معدلات العلمنة، مما يعنى تزايد معدلات التوجه نحو اللذة، والعزوف عن الإنجاب. وهذه الفترة هى ما يُعرف باسم فترة «الهجرة اليهودية الكبرى» (من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة). والعناصر المهاجرة - بسبب عدم استقرارها - تتخذ

موقفًا حذرًا من الإنجاب. كما أن غالبية يهود العالم بدأت تستقر في المدن الكبرى والعواصم، ومن المعروف أن سكان المدن لا يتكاثرون بنفس معدل سكان القرى، كما أن المناطق التي تركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية كانت مسرحًا للثورات والحروب (على عكس الفترة من ١٨١٥ - ١٩١٤). ويلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية زادت معدلات الزواج المختلط والانصهار والتنصر. لكل هذا تناقص عدد اليهود وتناقصت معدلات الوفيات بينهم. وقد أشار يوريا إنجلمان في كتابه «ظهور اليهود في العالم الغربي» (١٩٤٤) إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة (تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج) التي ستؤدي إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل وحذّر من أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوربا (قبل الهجوم النازي عليهم وعلى غيرهم من الأقليات) وصلت نقطة الخطر. وفي دراسة بعنوان اختفاء اليهود الألمان كُتِبت عام ١٩٠٨، حذّر صاحبها (تايلهابن) مما سماه الضعف السكاني الذي قد يؤدي إلى اختفاء يهود ألمانيا تمامًا.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وقد ساهم في تناقص عدد اليهود ظروف الحرب مثل المجاعة وسوء الأحوال الصحية وسوء التغذية والغارات على المدن وسقوط القتلى من أعضاء الجماعات اليهودية أثناء المعارك العسكرية وأعمال السخرة وعزل اليهود في مناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف (جيتوات حديثة)، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض (يُقال إن نحو ثُلث سكان جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإن كان من المتوقع لهم جميعًا أن يُبَادُوا تمامًا خلال عدة أعوام). إلى جانب أن عدم الإحساس

بالأمن أثناء الحرب يُعد من أهم العوامل التـي تجعـل النـاس يعزفـون عـن الإنجاب. كما يُلاحظ تزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط والتنصـر بـين أعضاء الجماعات اليهودية. وقـد حصـل كثـير مـن اليـهود علـى شـهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتسـنى لهـم دخـول أمريكـا اللاتينيـة وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر. وينطبق نفس الشيء على مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هربًا من النازيين.

وهنا يمكن أن نثير قضية ستة الملايين ضحايـا الإبـادة النازيـة لليـهود. فحسـب بعـض الإحصـاءات الغربيـة (أقـول بعـض وليـس كـل، فـهناك إحصاءات أخرى) انخفض عدد اليهود مـن ١٦,٥٠٠,٠٠٠ عـام ١٩٣٩ (أى عشية الحرب العالميـة الثانيـة) إلى ١٠,٨٥٠,٠٠٠، ويسـتنتج مـن ذلـك أن عدد ضحايا الإبـادة النازيـة هـو سـتة ملايـين. ورغـم أن الإبـادة النازيـة ليهود أوربا وغيرهم من الأقليـات هى تعبـير عـن نمـط إبـادى غربـى عـام (إبادة السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية - إبادة السـكان الأصليـين فـى أستراليا ونيوزيلندا - إبادة الملايين فى إفريقيا - حرب الإبـادة ضـد ألمانيـا واليابـان فـى الحـرب العالميـة الثانيـة.. إلخ). ورغـم أن تأسـيس الدولـة الصهيونيـة لا علاقـة بالهولوكوسـت، رغـم كـل هـذا إلا أنـها توظـف (أى الإبادة) وبشكل سوقى يسـىء إلى ضحايـا الإبـادة أنفسـهم لخدمـة المصـالح الصهيونية.

ورغم أنه قد يكون قد اختفى ستة ملايين بـالفعل، لكـن السؤال يطـرح نفسه: هل اختفاؤهم هو نتيجة الإبادة المتعمدة أو أنـها نتيجـة مركـب مـن الأسباب؟ السؤال يمكن أن يكـون أكاديميـا محضًا، لأن المـوت هـو المـوت سواء كان سريعًا بأفران الغاز أم بطيئًـا مـن خـلال أعمـال السـخرة، ولكـن

ما يحوّل السؤال من سؤال أكاديمى إلى سؤال له أهمية سياسية مباشرة هو ما أشرنا إليه من توظيف بذئ للهولوكوست لتحقيق مكاسب للدولة الصهيونية ولإسدال ستار سميك من الدخان على المنابح الأخرى فى العالم سواء مذابح دولة الصهيانية أم مذابح الروس فى الشيشان، ومن قبل ذلك المذابح الغربية المختلفة فى المستعمرات!

وقد استمرت العناصر التى تؤدى إلى تناقص أعداد اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، بل تصاعدت حدتها. فبلغ الزواج المختلط مؤخرًا ما يقرب من ٥٠٪ فى الولايات المتحدة وإلى ٨٠٪ فى بلد مثل فلندا. وبعد أن كان الزواج المختلط من قبل مقصورًا على الذكور اليهود، يلاحظ تزايد النسبة بين الإناث فى الآونة الأخيرة. وأصبح الزواج المتأخر، وهو نمط عام فى الدول التى يُقال لها متقدمة، ظاهرة واضحة بين اليهود. ويمكن أن نضيف إلى كل هذا تزايد عدد الشواذ جنسيًا بنسبة تصل فى بعض المدن فى الغرب إلى ٣٠٪ وهى آخذة فى التزايد، ومعظم الشواذ جنسيًا ينتمون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسيًا وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود. ويلاحظ انسحاب كثير من النساء اليهوديات من عملية الإنجاب بتأثير حركة التمركز حول الأنثى feminism التى تجعل من أى نشاط أنثوى خاص (مثل الإنجاب) أمرًا سلبيًا أو معوقًا لنشاط المرأة فى الحياة العامة. كما أن ظاهرة الشذوذ الجنسى لم تعد ظاهرة مقصورة على الذكور اليهود وحسب وإنما تفشت أيضًا بين النساء اليهوديات. وقد ازداد تركز اليهود فى المدن، كما ازداد تفسخ الأسرة اليهودية وتزايدت نسبة الطلاق وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب فى العالم. وأية جماعة

إنسانية – حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجيًا – لابد وأن تنجب الأنثى التي تنتمى إليها طفلا فى المتوسط. لكن المرأة اليهودية فى الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة فى العالم، فالإناث فى المرحلة العمرية ٣٥ –٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلاً، أما المرحلة العمرية ٢٥ – ٣٤ (وهى المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٠,٨٧ أى أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ فى الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧، وبلغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ عام ١٩٨٢، أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. ويبلغ عدد اليهود حاليًا ١٣,٠٩٣,٠٠٠، أى إن عددهم ظل ثابتًا قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤمًا من منظور صهيوني. فيذهب صموئيل لايبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ ملايين عام ٢٠٧٠. أما إلياهوبرجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكانية) فهو أكثر تشاؤمًا إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوى الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أى أقل من مليون). مع ملاحظة أن كلمة «يهودى» يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود فى العالم. وفيما يلى إحصاء بعدد اليهود فى العالم حاليًا (عام ٢٠٠٠) وبعد عشرة أعوام (٢٠١٠).

أماكن التواجد	العدد الحالى	العدد المتوقع فى عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكا الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩,٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٠٣ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوربا	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسا وحدها ٥٢٢ ألفا)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفيتى السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسيا وشمال إفريقيا	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب إفريقيا + منطقة المحيط الهندى	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمالى	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

لمصدر: معهد «اليهودية المعاصرة» المسمى باسم «أ. هيرمان» والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ويُلاحظ أن عدد اليهود فى العالم سيظل ثابتًا تقريبًا
وسيصبح هناك جماعتان يهوديتان أساسيتان: إسرائيل
والولايات المتحدة وكندا «إلا إذ صدقت نبوءة إلياهو برجمان، وفى هذه الحالة
ن توجد سوى الجماعة اليهودية فى إسرائيل). أما بقية العالم فسيض
جماعات يهودية صغيرة مشتتة ليس لها أى ثقل إحصائى.

أضواء على الوضع الديموجرافى ليهود العالم

وأخيرًا ظهر تقرير العالم الإسرائيلى سير جيو ديلا برجولاه عن الوضع الديموجرافى (السكانى) ليهود العالم. وديلا برجولاه واحد من أهم المتخصصين فى هذا الموضوع. وسأحاول أن أعرض لبعض الحقائق التى ترد فى تقريره مع محاولة تفسيرها، فالأرقام لا تنطق بالحقيقة. إذ لابد من استنطاقها، من خلال ربط بعضها البعض، وبأنماط أشمل وأعم منها.

يلاحظ ديلا بلاجولاه أن أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم زاد عددهم بمعدل ١٠٠ ألف نسمة فى الفترة من ١٩٩٨ حتى الوقت الحاضر، وأن عددهم أصبح الآن ١٣,٢ مليونًا بعد أن كان ١٣,١. ولكننا نعرف أن عدد اليهود عام ١٩٦٧ كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠، أى إن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لم يتزايد فى واقع الأمر وإنما تناقص حوالى نصف مليون فى الخمس والثلاثين سنة الماضية، وهذا رغم تحسن أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كل أنحاء العالم.

وفيما يلى توزيع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم:

القارة	عدد اليهود	النسبة المئوية
الأمريكتين	٦,٤٨٤,٨٠٠	٤٩,٢٪
آسيا	٤,٩٣٢,٩٠٠	٣٧,٤٪
أوربا	١,٥٨٣,٠٠٠	١٢٪
أستراليا	١٠١,٩٠٠	٠,٨٪
إفريقيا	٨٩,٠٠٠	٠,٧٪

التجمعات السكانية اليهودية الكبرى

التجمع	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٥,٧٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٨٨٢,٠٠٠
فرنسا	٥٢١,٠٠٠
دول الكومنولث	٤٦٨,٠٠٠

والأرقام - كما قلنا - لا تقول شيئًا، فهي صماء، مجرد «حقائق»، وليست الحقيقة، فالحقيقة هي أمر كليّ شامل متكامل له معنى يجرده المرء من الحقائق المتناثرة الصماء، التي لا تعني شيئا في حد ذاتها ويمكن للدارس أن يفرض عليها ما يشاء من معان. ولنحاول أن نفعل ذلك من هذه الأرقام.

إن الأرقام الواردة في الجدول السابق تبين أن غالبية ما يسمًى بـ«الشعب اليهودي» الذي يدّعي الصهاينة أنه في حالة شوق دائم للعودة إلى أرض الميعاد (٦٣٪ أي ٨,٣ ملايين يهودي) لايزال يعيش في «المنفى» بكامل إرادته ولا يوجد سوى ٣٧٪ منه أي ٤,٩ ملايين في إسرائيل، مما يعني أن «المنفى» ليس بمنفى، وأن الشعب ليس بشعب، وأن «الشتات» ليس بشتات، وأن كل ما هنالك هو أقليات يهودية وجد أعضاؤها أن حياتهم في أرجاء العالم تتيح لهم فرصًا حقيقية للحياة الإنسانية الكريمة وأن الشعار الصهيوني «شعب بلا أرض» لا أساس له من الصحة، لأن أعضاء الجماعات اليهودية المنتشرة (لا المنفية) في أنحاء العالم لا تبحث عن أرض أو وطن، وإنما تندمج في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وبالفعل توجد دراسة أصدرها مركز «الهوية اليهودية» بجامعة بار إيلان بإسرائيل تشير إلى أن معاداة اليهود قد انخفضت معدلاتها فـى معظم دول العالم، كما أن وضع اليهود بها أصبح أفضل من أى وقت مضـى. فاليـهود مستقرون فى مجتمعاتهم ويحصلون على المناصب التى يريدونها، وكل هذه الأمور تزيد معدلات اندماجهم خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. ومن الطريـف أن دكتور يعقوب إلياف مدير مركز الهوية اليهوديـة قد «حـذَّر» مـن ذلـك الوضع (كما جاء فى هاتسوفيه ٢٠٠٠/٩/٤)، ولذا تصر جامعـة بـار إيـلان على ضرورة عقد مؤتمر دولى حول موضوع الاندماج وتعتزم عقد هـذا المؤتمـر بصفة سنوية وتخصص اعتمـادات للأبحـاث التـى تجـرى لمكافحـة ظـاهرة الاندماج. إن الاندماج يشكل خطورة حقيقية على الصهيونية، لأنـها، كما قال أى إف. ستون، المفكر الأمريكى اليهودى، تعيش على الكـوارث التـى تحيق باليـهود، وبـدون كـوارث لا يمكـن أن تقـوم لهـا قائمـة، إذ يستقر اليهود حينذاك فى مجتمعاتهم، يعيشـون فيـها شـأنهم شـأن أيـة أقليـات دينية أو إثنية أخرى.

ومن مظاهر الاسـتقرار والاندمـاج تصـاعد معـدلات الـزواج المختلـط بـين أعضـاء الجماعـات اليهوديـة وأبنـاء مجتمـع الأغلبيـة. وقـد وصلـت هـذه الزيجات المختلطة إلى ما يزيد عن ٥٠٪ فى كثير مـن المنـاطق. وشـير ديـلا برجولاه إلى أن ٢٥٪ فقط من أبناء هذه الزيجات هم الذين يصنفون أنفسـهم يهودًا، ويمكن أن نضيف أنه حتى هؤلاء تكـون هويتـهم اليهوديـة ضعيفـة وتكاد تكون اسمية، وكل هذا يؤدى إلى الانصهار والاختفاء الذى بلغ ذروته فى ألمانيا وأوكرانيا (٧٥٪).

ويسمى الصهاينة الزواج المختلط «الهولوكوسـت الصـامت»، أى الإبـادة الصامتة لليهود، وهى تسمية أيديولوجية كريهـة ومضللـة. فاليـهود الذيـن

يستقرون في بلادهم ويتزاوجون من أعضاء الديانات الأخرى لا يُبَادُون، وما يتهاوى ويسقط هو الادعاءات الصهيونية الكاذبة. ويرى يعقوب إلياف أنه إن لم يتم الكفاح ضد ظاهرتى الاندماج والزواج المختلط فسوف يتقلص عدد أبناء «الشعب اليهودى» (المقيمين خارج إسرائيل) عام ٢٠٢٥ إلى ١,٥ - ٢,٥ مليون يهودى فقط، وهذه قد تكون مبالغة، ولكنها مبالغة دالة.

ومن الأمور المهمة التى يذكرها التقرير أن عدد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق خلال عام ٢٠٠٠ قد بلغ أقل من نصف مليون نسمة (٤٦٨ ألف يهودى، عدد كبير منهم من المسنين وغير القادرين أو الراغبين في الهجرة). وأن عدد اليهود فى فرنسا حاليًا هو ٥٢١ ألفا، أى أن عدد يهود فرنسا يفوق عدد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق. كما تشير الإحصاءات إلى أن عدد يهود غرب أوربا أصبح أكثر من عدد يهود شرق أوربا، لأول مرة فى التاريخ الحديث، وهذه مسألة ذات أهمية قصوى. فنحن نذهب إلى أنه توجد صهيونيتان لا صهيونية واحدة: الأولى هى الصهيونية الاستيطانية، وهى أن يترك اليهودى بلده ويذهب إلى فلسطين ليصبح مستوطنًا صهيونيًا فيها. أما الثانية فهى الصهيونية التوطينية، وهى أنه يكتفى اليهودى الذى يسمى نفسه صهيونيًا بأن يعطى الدعم المالى والسياسى للمنظمة الصهيونية لتوطين يهود آخرين (وقد تم تلخيص موقف الصهيونية التوطينية فى تعريف يقول إن الصهيونى التوطينى هو يهودى يدفع المال ليهودى ثان لإرسال يهودى ثالث إلى أرض الميعاد!). وصهيونية العالم الغربى صهيونية توطينية، فشرق أوربا كان دائمًا مصدر المادة البشرية الاستيطانية، ومع جفاف ينابيعها، فإن أزمة الاستيطان ستتفاقم فى الدولة الصهيونية.

وأخيرًا يشير ديلا برجولاه إلى أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية (من تناقص عدد المواليد وتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط) والتي يصاحبها ظاهرة أن الجماعات اليهودية في العالم لا تتزايد بسبب العزوف عن الزواج والإنجاب (تنجب الأنثى اليهودية في الولايات المتحدة في المرحلة العمرية من ٢٠ - ٣٠، وهي أكثر مراحل العمر خصوبة، أقل من طفل، وحتي تعيد الجماعة الإنسانية إنتاج نفسها يجب أن تنجب الأنثى طفلين ونصفا تقريبًا). إذا حدث ذلك فإن ديلا برجولاه يتوقع أن عدد اليهود في إسرائيل سيكون مماثلاً لعددهم في بقية أنحاء العالم، في غضون أقل من ٣٠ عامًا. ثم يشير إلى أن نصف الأطفال اليهود (ممن تصل أعمارهم إلى ١٥ سنة) يعيشون حاليًا في إسرائيل، وأنه في عام ٢٠٢٠ ستصل نسبتهم إلى ثُلثي الأطفال ممن هم في هذه المرحلة العمرية، وهذا الوضع الديموجرافي سيُغيِّر الصورة تمامًا.

□□□

الشوق الأزلي إلى صهيون

المصطلح الصهيوني مصطلح أيديولوجي متحيز معبأ بالمفاهيم الصهيونية. فمصطلحات مثل «الشعب اليهودي» و «المنفى» و «الشتات» مصطلحات لا أساس لها من الصحة إذا ما نظرنا إلى واقع اليهود الديموجرافي (السكاني). والمصطلحات الصهيونية بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين تحمل نفس الأعباء الأيديولوجية وبشكل أكثر حدة فهم يطلقون على الهجرة إلى فلسطين كلمة «عالياه» وهي كلمة عبرية مشتقة من فعل «يعلو»، ولذا فالكلمة تعني «الصعود إلى السماء» و «الصعود لقراءة التوراة في المعبد أثناء الصلاة» و «الصعود إلى أرض إسرائيل بغرض الاستيطان الديني». وفي العهد القديم نجد أن الذهاب إلى فلسطين يعبَّر عنه بعبارة

«الصعود إلى الأرض» (أما الذهاب إلى مصر فيُعبَّر عنه بـ «النزول إليها»). وقد كانت للعالياه أغراض عديدة ولها إيحاءات عاطفية ودينية، فمثلاً كانت تتم بغرض الشفاء من الأمراض وللتخلص من الفقر، كما كان الكهول يهاجرون لاعتقادهم أن الدفن في أرض الميعاد يجلب ثوابًا كبيرًا. وكان البعض «يعلو» إلى إرتس يسرائيل بغرض دراسة التوراة.

وقد استخدمت الحركة الصهيونية هذا المصطلح الديني وجردته من بُعده الإيماني المجازي وأطلقته على حركة الهجرة الصهيونية من شرق أوربا إلى فلسطين في العصر الحديث، وفي هذا تعمية أيديولوجية. فالعالياه مصطلح ديني يصف أفعالاً فردية وأوامر يُفترض فيها أنها ربانية ذات قداسة معينة من وجهة نظر من يقوم بها، ولا يمكن إطلاقه على ظاهرة اقتصادية اجتماعية سياسية يقوم بها فريق من الصهاينة لا يؤمن معظمهم بالعقيدة اليهودية. ومما له دلالته أن كلمة «هجيراه» العبرية كلمة محايدة تؤدي نفس المعنى، ولكن الحركة الصهيونية تؤثر استخدام المصطلحات التقييمية على المصطلحات الوصفية حتى يمكنها فَرْض غمامات أيديولوجية. وتهدف هذه المصطلحات الرومانسية ذات الهالات الدينية إلى توليد الانطباع أن اليهود في حالة شوق دائم وولع أزلي للعودة إلى صهيون الحبيبة!

وبدلاً من قبول الادعاءات الصهيونية عن أنفسهم كما يفعل كثير من المحللين الغربيين والعرب ننظر إلى الواقع ذاته، إلى إحصاءات الهجرة. إذا نظرنا إلى عدد اليهود الذين استوطنوا في فلسطين في الفترة بين عامي ١٨٨٢، ١٩٣٢ نجد أنه لا يتجاوز ١٧٤ ألفًا (منهم ٣٠ ألفًا، أي ١٦٪ من اليهود الذين استوطنوا في فلسطين لأسباب دينية قبل بداية الاستيطان الصهيوني). هذا يعني أنه خلال ٥٠ عامًا كان يهاجر إلى فلسطين ٢٥٠٠

يهودى كل عام من مجموع يهود العالم الذى بلغ آنذاك ١٦ مليونًا. وفى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ غادر روسيا أربعة ملايين يهودى لم يتوجه منهم سوى ٩٠ ألفًا إلى فلسطين. فأين هذا التشوق الأزلى والدائم للعودة لأرض الميعاد؟

تغيَّرت الصورة قليلاً فى الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٤ إذ هاجر ٢٦٥ ألف يهودى، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين أثناء الانتداب. وهذا لا يعود إلى الشوق الأزلى إياه، وإنما إلى وصول هتلر إلى السلطة ولذا قال أحدهم إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الحركة الصهيونية، أى منظِّرها، فإن هتلر هو لينين الصيهيونية، أى من وضعها موضع التنفيذ.

ونفس النمط يستمر بعد إعلان الدولة، فالهجرة لم تتم، إلا فى القليل النادر، لأسباب أيديولوجية. فيهود البلاد العربية لم يهاجروا حبًا فى صهيون وإنما بحثًا عن الحراك الاجتماعى، ولذا نجد أن الأثرياء بينهم وذوى الخبرات الخاصة هاجروا إلى أوربا. كما هاجر كل يهود الجزائر إلى فرنسا لأنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية!

وقد تساقطت كل الادعاءات الصهيونية تمامًا مع هجرة اليهود السوفييت الذين جاءوا إلى إسرائيل بحثًا عن الحراك الاجتماعى، ولذا فهم لا يريدون أن يسمعوا «شيئًا عن صهيون» على حد قول يورى جوردون رئيس قسم الاستيعاب فى الوكالة اليهودية. وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامى خيار سوى أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور فى روما». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم البقاء. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية فى إسرائيل بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع: تأشيرات دخول إلى كندا. وقد وصف أريبه

ديرى، وزير الداخلية، المهاجرين المرتزقة وصفًا دقيقًا حين قال: إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر. وقال أوبليون: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها كمحطة على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضًا، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهى بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تمامًا « أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف» (كما وصفهم يورى جوردون).

وقد وصف بعض المهاجرين الأسباب التى دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتى، فقال أحدهم: إن الحياة هناك أصبحت مملة. فالهجرة إلى إسرائيل هى مجرد بحث عن الإثارة. وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفيتى لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفيتى لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل. وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة، ذكر أنه جاء لا ليشترى سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر، ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجرًا (سوفيتيًا) يشبه إيفان الذى ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة فى الكيبوتس، لأنه يكره التعصب الدينى والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد فى القطب الشمالى أو على مسافة صغيرة من روسيا، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء.

وكثير من هؤلاء الصهاينة أو المرتزقة ليس لهم علاقة كبيرة باليهودية. وقد جاء فى صحفية هآرتس (١/ ١/ ٢٠٠١) أن حوالى ٢٢٥ ألفًا من المهاجرين الروس الجدد (أى حوالى ٢٥٪) الذين سجلوا كيهود ليسوا يهودًا

بالفعل. كما ذكرت الصحيفة نفسها في عددها الصادر في ٢٢ يونية ٢٠٠٠ أن عددًا كبيرًا منهم لم يكن يعرف في الماضي أنهم يهود، أي إنهم اكتشفوا أنهم يهود فجأة (وبخاصة بعد أن عرفوا عن التسهيلات أو الرشاوى المالية التي تُقدَّم لهم). وتقوم المؤسسة الأشكنازية الغربية الحاكمة في إسرائيل بتيسير الأمور لهم. ولذا تعقد لهم امتحانات صورية في اليهودية يسهل عليهم اجتيازها حتى يمكن اعتبارهم يهودًا، وهذا يعود لأسباب لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما بتعديل الميزان الديموجرافي (السكاني) لصالح الأشكناز في مقابل السفارد، واليهود العلمانيون في مقابل الأرثوذكس، واليهود ككل في مقابل العرب. وتذهب المؤسسة الحاخامية إلى أن نصف هؤلاء المهاجرين السوفييت ليسوا يهودًا (وبخاصة إذا عرفنا أن نسبة الزواج المختلط بينهم عالية جدًا).

ويبلغ عدد الإسرائيليين من منشأ روسي (من الصهاينة المرتزقة) حوالي مليون (أي حوالي خُمس سكان إسرائيل) يشكلون كتلة «قومية» مستقلة، لها تميزها وحضورها الخاص، فهم كيان مستقل داخل الكيان الإسرائيلي، فلهم محطة إذاعة وتليفزيون خاصة بهم، وصحافة باللغة الروسية وأندية ومدارس. فهم - كما قال أحدهم - «يفكرون بالروسية ويتواصلون فيما بينهم». وتنبع قوة الثقافة الروسية المحلية (المنقطعة الصلة بالثقافة الإسرائيلية والمرتبطة بثقافة الوطن القديم) من حجمها الكبير ومن المؤهلات البشرية التي في حيازتها. ولذا فهي تحافظ بشراسة على استقلالها، بل إن أحدهم أشار إلى تكوين حزب إسرائيل بعالياه على أنه بداية حرب الاستقلال الخاصة بالروس. ولذا لا يُصنِّف سوى ١٦٪ منهم نفسه على أنه «إسرائيلي» مقابل ٢٦٪ اعتبر نفسه «من رابطة الدول المستقلة» و ٣٢٪ اعتبر نفسه «يهوديًا» (أي أكثر من النصف) واكتفى ١٢٪ بأن يسمي نفسه تسمية محايدة «مهاجر جديد».

ولم يتم قبول هذه الكتلة الروسية من قبل المجتمع الإسرائيلى، ولذا يشعر ٥٩٪ من المهاجرين السوفييت أن المجتمع الإسرائيلى يستوعب الهجرة إما بلا مبالاة أو بعدائية. وفى المقابل حين سُئل الإسرائيليون عن وصفهم للمهاجرين السوفيت قال حوالى ٣٦٪ إنهم بروفسير كناس وسمسار وعاهرات (واتهام المهاجرين السوفييت باحتراف البغاء والجريمة المنظمة، اتهامات لها أساس فى الواقع).



الفصل الثانى

النبوءات الصهيونية

نبوءات أم أكاذيب

حينما يدرك الإنسان الواقع فهو لا يدركه بشكل مباشر وإنما من خلال إدراكية تتشكل من خلال الذكريات والعقائد والرؤى والأساطير والأحلام، العقل ليس صفحة بيضاء ترتسم عليها معطيات الواقع المادية كما يدّعى البعض، فهو يتسم بأنه توليدى مبدع، لا يدرك بشكل متلقٍّ، وإنما يعيد صياغة الواقع أثناء إدراكه.

وهذه الحقيقة لها جوانبها المضيئة وجوانبها المظلمة، فالجانب المضيء هو أن عقل الإنسان مبدع قادر على تجاوز واقعة المادى وقادر على إعادة صياغته فى وجدانه، ثم يحاول بعد ذلك إعادة صياغته فى الواقع. كما أن العقل الإيجابى التوليدى لا يدرك السطح وحسب وما هو قائم، وإنما بوسعه أن يدرك الباطن وما هو كامن، وهو لا يدرك الواقع كتفاصيل متناثرة لا يربطها رابط، وإنما يحاول أن يراها داخل نمط متكرر باعتبارها كلاً متكاملاً.

أما الجانب المظلم للعقل التوليدى، فهو أن الإنسان المنهزم، المنكسر، لا يدرك الواقع إلا من خلال هزيمته وانكساره، ولا يرى أبدًا بشائر النصر الكامنة، فخريطة عقله الإدراكية تحتوى على الهزيمة. وقد حدث شيء من هذا القبيل للعقل العربى فى علاقته بالصهيونية، إذ ألقى فى روعنا من خلال كتابات بعض «الدارسين الموضوعيين» أن عدونا لا يُقهر وأنا علينا التفاهم معه، فمحاولة هزيمته أمر عبثى. وفى إحدى محاضراتى، التى حاولت أن أفتح بها كوات من النور أمام الجمهور، حتى يمكنهم استئناف الجهاد وعدم الاستسلام للهزيمة، قام ثلاثة من دعاة التطبيع وابتسموا فى

ثقة بالغة وقالوا: «هذا هو خطاب عام ١٩٤٨»، «أنت لا تختلف عمن ينشدون «أمجاد يا عرب أمجاد» أو «خلى السيف يجول». فضحكت وأجبت أننى لم أقل شيئًا وإنما ذكرت بعض الحقائق التى يهملها دعاة الهزيمة والتطبيع، ثم أضفت: «وإذا كانت هذه الحقائق قد ولدت بعض الأمل، فأنا أعتذر عن ذلك، لأن هذا لم يكن قصدى».

ومن الموضوعات الأثيرة لدى الخبراء من دعاة التطبيع والهزيمة أنهم يشيرون إلى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهيونية ستتحقق بعد خمسين عامًا، ثم يهزون رأسهم فى حكمة بالغة ويقولون: إنها قد تحققت بالفعل فى ذلك التاريخ، ثم يشفعون ذلك بالإشارة الحتمية إلى دقة التخطيط الصهيونى ومقدرات الصهاينة العجائبية. وهم عادةً ما يقولون إن الرؤية الصهيونية مبنية على تحليل موضوعى علمى دقيق صلب للواقع، وبالتالى فالنبوءة الصهيونية هى نبوءات علماء دارسين للواقع، عارفين به. بل إن بعض العرب يعتقد أن كل النبوءات الصهيونية بخصوص الشرق الأوسط تحققت، أو على الأقل آخذة فى التحقق.

ولكن لعل كثيرًا ممن يُقال لهم بالموضوعيين هم فى واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات، والنبوءات التى تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه، ولذا نجدهم يرصدون نوعًا واحدًا من القرائن، دون غيره - أى إنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية، ولذا فهم لا يذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التى لم تتحقق. فعلى سبيل المثال، ماذا عن نبوءة هرتزل بأن «ألمانيا العظيمة القوية» هى التى ستقوم برعاية المشروع الصهيونى وحماية اليهود «ووضعهم تحت جناحيها» كما قال بالحرف الواحد فى يومياته؟ وكلنا يعرف أن ألمانيا العظيمة هذه وضعتهم فى أفران الغاز وفتكت بهم وبغيرهم، بعد مرور حوالى ثلاثين عامًا من نبوءته لا أكثر ولا أقل!

وماذا عن نبوءة بن جوريون الذى قال: «إن عقب أخيل [أى نقطة الضعف] فى الائتلاف العربى هو سيادة المسلمين فى لبنان، وهى سيادة زائفة يمكن بسهولة قهرها. ويجب قيام دولة مسيحية هناك، بحيث تكون حدودها الجنوبية على نهر الليطانى، وسنكون على الاستعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. وبعد أن نكسر الفيلق العربى ونضرب عمّان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر على محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهى الحرب ونقضى قضاءً مبرمًا على مصر، وآشور كلدانيا بالنيابة عن أسلافنا».

ومن الواضح أن النبى الصهيونى الدجال قد اكتسحته رؤاه الشاملة الحلوة وأسكرته، فلبنان لم تقم فيها دولة مسيحية أو إسلامية وإنما دولة عربية، وهذه الدولة العربية هى إحدى مراكز المقاومة والنضال العربى، وحيث إن هذه الدولة «العربية العميلة» التى كان يحلم بها الزعيم الصهيونى لم تقم فهو بالتالى لم يوقع معها معاهدة، بل طردت إسرائيل منها بعد أن قامت المقاومة اللبنانية، بمسلميها ومسيحييها، بالتصدى لها وإحداث نزيف مستمر لها. أما ضرب عمّان بالقنابل (بهدف تحطيم إرادة إمارة شرق الأردن) فمسار التاريخ كان من العناد بحيث لم يتحقق، وسوريا لاتزال شامخة أبية، ومصر العربية الفتاة العجوز قد تحملت ضربات القنابل إلى أن انتفضت فى أكتوبر ١٩٧٣ وردت الغاصب على عقبيه. ونسى النبى الصهيونى فيما نسى تلك الصخرة الصامدة فلسطين ذاتها وأصحابها من الفلسطينيين. ولكن أنَّى للنبى أن يتنبأ بهذا وهو المشغول بمصر الفرعونية وآشور وكلدانيا يحارب جيوشها ويهزمها فى أحلامه الصهيونية الجيتوية الشرسة؟

وقد تنبأ الصهاينة بأنهم يمكنهم شراء فلسطين. فقد قـدَّر هرتـزل ثمنـها بمليوني جنيه فقط لا غير! . وكان الزعيم الصهيوني موشيه ليلينبلـوم يـرى أنه يمكن حل المسألة اليهودية عن طريق شراء فلسطين وأنه «لا توجد قـوة أوربية تفكر في منع اليهود من شراء أرض أجدادهم مرة أخرى. وكان يوقن تمامًا أن تركيا سترد لهم وطنـهم نظير حفنـة مـن الذهـب. وهـي نبوءة لم تتحقق، فالقوى الأوربية لم تمنعه حقًا من «شراء» فلسـطين، ولكـن الدولـة العثمانيـة رفضـت، كمـا أن انتفاضـات الفلسـطينيين المسـتمرة أثبتـت أن فلسطين ليست للبيع أو الإيجار! وتصور ليلينبلوم لفكرة شراء الوطن ليست مغايرة لفكرة المفكر الصهيوني «الاشتراكي» موسى هس الـذي قـال: «علـى رجالنا الأغنياء أن يبـدءوا بشـراء العقـارات فـي تلـك الأرض، ولـو ببعـض ما يملكون مـن ثـروة، ومـا دام هـؤلاء لا يرغبـون فـي تـرك أراضيـهم التـي يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض إسرائيل ببعض مـن مالهم حيث تُعطى هذه الأراضي لـن يستغلها على أسـاس اتفاقيـة بشـأن العائد (أو الربح) مع الشاري». ويرى مفكر صهيوني آخر، ليو بنسـكر، أن حل المسألة اليهودية يتلخص في تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعـة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن.

وقد حاول الصهاينة الاستيلاء على حائط المبكى أيضًا عن طريـق الشـراء في بادئ الأمر، ومن تلك المحاولات محاولـة الحاخـام عبـد الله (حاخـام الهنـد) شـراء الحـائط عـام ١٨٥٠. وفـي عـام ١٨٨٧، حـاول البـارون دي روتشيلد شراء الحي المجاور للحائط لإخلائه من السكان واقترح أن تشتري إدارة الوقف أرضًا أخرى بالأموال التـي سـتحصل عليـها، وتوطـن السـكان فيها، وهو حل يحمل كل ملامـح الحلـول الصهيونيـة (الترانسـفير)، وقـد رُفض طلبه كذلك. وقبل الحرب العالمية الأولى، قام البنك الأنجلو فلسطيني بمحاولات «جادة» لشراء الحائط كما قـام الصهاينـة بمحـاولات للاستيلاء

عليه، أو التسلل إلى منطقة هضبة الحرم عن طريق تقديم رشاوى، أولاً للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين حيث عرضوا عليه نصف مليون جنيه استرليني، ثم عُرض على الشيخ سعيد العلمي مبلغ مليون دولار، ولكن النبوءة الصهيونية العقارية - كما نعرف جميعًا - لم تتحقق.

كما أن هناك نبوءات صهيونية أخرى أقل شمولاً واتساعًا، فقد تنبأ بعض الخبراء الصهاينة أن يهود الأرجنتين الذين يبلغ عددهم حوالى ٣٠٠ ألف (وبالتالى هم أكبر تجمُّع يهودى فى أمريكا اللاتينية) سيهاجرون إلى إسرائيل. وأمريكا اللاتينية تُعتبر إحدى مناطق النزوح، أى إنها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم. وهذا يعود لعدة أسباب من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها فى الوقت نفسه على هضمهم، ومن بينها أيضًا تقاليد معاداة اليهود الراسخة، وعدم الاستقرار السياسى أو الاقتصادى لبلاد القارة. وقد جاء انتخاب منعم رئيسًا للأرجنتين، بخلفيته الإثنية العربية، فزاد من مخاوف اليهود فيها، وبخاصة أن منافسه ألفونسين كان متعاطفًا مع أعضاء الجماعة. لكل هذا أطلق الصهاينة النبوءات بأن «هجرة جماعية» ستبدأ لا محالة من الأرجنتين إلى إسرائيل.

ولكن الذى حدث بالفعل خيَّب أمل الصهاينة إذ لم يهاجر سوى بضع مئات، عادوا بعدها إلى بلادهم، وتوجه بعضهم إلى الولايات المتحدة، البلد الذى يشكل نقطة الجذب الأساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم، وصرح دوف شيكلانسكى، المتحدث باسم الكنيست وأحد زعماء الليكود أن يهود الأرجنتين لم يستمعوا إلى نصائحه (نبوءاته) الصهيونية (ميامى جويش تلغراف ٣ أغسطس ١٩٨٩).

وفى عام ١٩٨٢ صرح متيتياهو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق فى الوكالة اليهودية) بأن عدد المستوطنين الصهاينة فى الضفة الغربية

سيصل إلى ١٠٠ ألف عام ١٩٨٧ وأنه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١,٢٥٠,٠٠٠ يهودى! ونُشرت النبوءات بحذافيرها فى كثير من الصحف العربية، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية. ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠ - ٦٠ ألفًا، أى إن نبوءة دروبلس أو مخططه فشل تمامًا! ومع هذا صرح هذا المسئول الصهيونى نفسه في ذلك العام (١٩٨٧) بأن هناك خطة مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب فى نهاية القرن الحالى، أى ٦٠٠ ألف مستوطن، ثم أشار إلى أن هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودى من الاتحاد السوفيتي.

وقد نُشرت النبوءة بحذافيرها مرةً أخرى فى كثير من الصحف العربية، كما زينت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية، ولكن لم يكلف أحد خاطره بأن يذكر كذبة دروبلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته (نبوءاته) الجديدة، ولم يطرح أحد احتمال أنه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأماني والحقيقة بالوهم، وأنه قد لا يختلف كثيرًا عن المخابرات الإسرائيلية التى استمرت في إنكار وجود الانتفاضة بعد شهر من اندلاعها، والتى أعلنت أنه تم إخمادها بشكل نهائي - عشر مرات قبل أن يتحققوا أنها ظاهرة مستمرة.

الدياسبورا الإلكترونية

يمكننا أن نستمر فى تعداد النبوءات التى لم تتحقق. ولنبدأ بذكر بعض نقط الفشل التى ارتكبتها المخابرات الإسرائيلية.

١ - ظهور أول فشل للمخابرات الإسرائيلية فى فضيحة لافون حينما اكتشف المصريون شبكة التجسس التى كانت تحاول تخريب العلاقات بين

مصر والولايات المتحدة، وقد تلمَّص بن جوريون من المسئولية وألصقها بلافون.

٢ – فشل المخابرات الإسرائيلية فى معرفة أى شيء عن صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر قبل وقوعها.

٣ – اكتشاف الدور التخريبى الذى كانت تقوم به المخابرات الإسرائيلية ضد العلماء الألمان بإرسالها الظروفات المتفجرة. فقد قبضت الشرطة السويسرية فى عام ١٩٦٣ على يوسف بنجال من المخابرات الإسرائيلية والمهندس النمساوى أوتوجوليك بتهمة الضغط على ابنة أحد العلماء الألمان لتحمّل والدها على ترك العمل فى مصر، كما اكتشفت أن المخابرات الإسرائيلية هى المسئولة عن اختطاف الدكتور هانز كروج والمهندس دولفجانج بيلز واختفائهما، وكذلك محاولة اغتيال الدكتور والتركلين، وكلهم من العلماء الألمان. وكعادته حاول بن جوريون التلمُّص فألصق التهمة بايسير هارئيل رئيس الشين بيت (الشاباك)، مع أنه من المعروف أن هارئيل ما كان ليتصرف على هذا النحو دون أوامر من بن جوريون، وقد استقال هارئيل احتجاجًا على مسلك بن جوريون وإن كان لم يحاول إظهار حقيقة الأمر كما فعل لافون.

٤ – فوجئت الاستخبارات أيضًا بعملية مطار اللد التى اشترك فيها يابانيون على الرغم من توفر معلومات عن وجود أجانب بين الفدائيين، وعن علاقات المنظمات الفلسطينية بمنظمات عسكرية من دول مختلفة.

٥ – اكتشاف تورُّط المخابرات الإسرائيلية فى حادثة اغتيال بوشيقى مما سبَّب الحرج للحكومة الإسرائيلية فى أوربا. وقد تكرر الأمر بعد ذلك، ولعل آخرها محاولة اغتيال خالد مشعل.

٦ – فشلت المخابرات الإسرائيلية فى مكافحة اختطاف الطائرات وفى حماية بعض عملائها فى الخارج.

٧ – ولكن الخطأ الأكبر هو خطأ حرب عيد يوم الغفران، حينما فوجئت إسرائيل بالعبور العربي المصرى السورى العظيم، وقد عدَّد زئيف شيف المعلق العسكرى الإسرائيلى مواطن الخطأ والقصور فى عدة نقاط نورد منها ما يلى:

(أ) توهمت إسرائيل أن العرب غير قادرين على الحرب وقد هدَّدت إسرائيل بأنه لو بدأ العرب بحرب محدودة فستقوم إسرائيل بحرب شاملة، وما لم تتصوره إسرائيل هو أن العرب قد يشنون هم أنفسهم حربًا شاملة.

(ب) لم تتمكن إسرائيل من التنبؤ، بالحرب البترولية الشاملة.

(جـ) لم تتصور إسرائيل أنها ستحتاج لمساعدات ضخمة من الولايات المتحدة منذ اليوم الثالث للحرب.

(د) تصوُّر أن القوات الإسرائيلية ستحقق انتصارًا ساحقًا ماحقًا على القوات العربية فى أول يوم.

(هـ) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية قُدرة المصريين على تنفيذ عملية عبور ناجحة ونقل عدة فرق مشاة وبعدها فرق مدرعة إلى ما وراء القناة، خلال ساعات معدودة، كما لم تقدِّر بصورة سليمة، كفاءة سلاح المهندسين المصرى والأسلحة المساعدة الأخرى.

(و) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية المقدرة القتالية لسلاح المشاة المصرى تقديرًا صحيحًا خصوصًا قدرته على مواجهة المدرعات التى تهاجمه، كما أنها لم تعرف شيئًا عن إقامة وحدات من صائدى الدبابات فى الجيش المصرى.

(ز) لم تعرف المخابرات الإسرائيلية بكميات الأسلحة المضادة للدبابات التى وزعت على وحدات المشاة، كما لم تقدّر كما يجب، تأثير كميات الأسلحة هذه فى أساليب القتال وطابعه.

٨ - استمر الفشل الاستخبارى الإسرائيلى على عدة مستويات من أهمها فشل المخابرات الإسرائيلية فى تقدير حجم المقاومة اللبنانية للغزو الإسرائيلى للبنان، ثم المحاولة الصهيونية للتخندق فيما سموه «الحزام الأمنى».

٩ - فشلت المخابرات الإسرائيلية فى التنبوء بانتفاضة ١٩٨٧ واستمرت فى تسميتها اضطرابات لمدة عدة شهور.

١٠ - وأخيرًا توهمت المخابرات الإسرائيلية أن ما يسمّى «عملية السلام» سيُخدِّر الفلسطينيين والشعب العربى، وفوجئت باندلاع انتفاضة الأقصى، وبحجم التأييد الشعبى لها.

ولكن الفشل الصهيونى فى التنبؤ، لا ينطبق على المخابرات الإسرائيلية ولا على الأحداث المتفرقة وحسب، وإنما يمتد ليشمل الرؤية الإستراتيجية.

١ - تنبأ هرتزل، على سبيل المثال، بأن دولته اليهودية ستمتد من النيل إلى الفرات أو كما قال: «شعارنا هو فلسطين داوود وسليمان». وقد أكد له صديقه ماكس بودنهايمر أن المساحة التى يطلبها الصهاينة هى «من وادى النيل إلى الفرات». ولفترة من الزمن كان هذا هو الهدف الصهيونى، ولكن تدريجيًا تقلّص هذا الوهم، خاصةً مع اكتشاف الصهاينة أن احتلال أرض عربية تتسم بالكثافة السكانية ليس أمرًا هينًا، وأنه يحتاج إلى قوة احتلال عسكرية نظامية كبيرة لا يمكن لإسرائيل أن تحتفظ بها، خاصةً مع تصاعُد المقاومة العربية المستمر. ولذا انكمش الحلم الصهيونى وبدءوا

يتحدثون عن الأمن الصهيوني الذى يمتد من النهر (نهر الأردن) إلى البحر (البحر الأبيض المتوسط)، وبدأ الحديث عن إسرائيل الكبرى اقتصاديًا بدلاً من إسرائيل العظمى جغرافيًا!

٢ - ويمكننا الحديث عن نبوءة تحقق نصفها وحسب، فحينما حضر هرتزل إلى مصر استمع إلى محاضرة عن الرى واسترعى انتباهه وجود عدد كبير من المصريين الذين بدت عليهم سمات الذكاء. فدوّن هرتزل فى مذكراته أن هؤلاء المصريين هم قادة المنطقة ثم أضاف: «ومن الغريب أن الإنجليز لا يرون هذا ويظنون أنهم سيظلون يتعاملون مع فلاحين إلى الأبد. يكفى الإنجليز ٨٠٠٠ جندى لحكم هذه البلاد الكبيرة، ولكن إلى متى يا ترى؟» وتساؤل هرتزل هذا ينم عن فطنة وذكاء، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه: لِمَ لَمْ تجعله ملاحظاته يعدل عن أطماعه فى شبه جزيرة سيناء؟ ولِمَ لَمْ يعمِّم من ملاحظاته عن الإنجليز ما قد ينتفع به كمستعمِر صهيونى؟ إن نصف نبوءة هرتزل بخصوص المنطقة قد تحقق، ولكن النصف الثانى، الخاص بالاستيلاء على أجزاء من مصر لتأسيس الدولة اليهودية، لم يتحقق.

٣ - تنبأ الصهاينة بأن الحركة الصهيونية ستقوم بجمع شمل الشتّتين اليهود. ولكن هذا الهدف لم يتحقق من قريب أو بعيد. فإسرائيل لا تزال دولة أقلية نظرًا لأن يهود العالم - خاصةً يهود أمريكا المندمجين - يرفضون تنفيذ النبوءة الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد، مكتفين بالتشوق الدائم لها، ولا يزال مركز الدينامية بالنسبة لهم هو دولهم التى يعيشون فيها، وليس الدولة اليهودية. وقد تكيَّف الصهاينة مع هذا الوضع، ولذا تنازلوا عن شعارات مثل «جمع المنفيين»، ولم تَعُد المنظمة الصهيونية تطلب من يهود العالم الغربى الهجرة إليها، ولم تَعُد تتبع

الأسلوب العقائدى العدوانى الذى كانت تستخدمه مع الماضى معـــهم. ومـن هنا الحديث عن «الصهيونية التكنولوجية» أو «الإلكترونيـة» أو «صهيونيـة الدياسبورا» (بدلاً من «نفـى الدياسـبورا»)، أى إن الحركـة الصهيونيـة قـد قبلت بأمر واقع مفاده أن اليهود ليسوا واحدًا وأن إسـرائيل ليسـت وطنـهم الوحيد وأن يهود المنفى لهم حق البقاء فيه على أن يساهموا فى بناء الدولة الصهيونية بأى شكل بما فى ذلك إرسال إســهاماتهم بالـبريد الإلكـترونى، ومن هنا قبول الصهيونية التوطينية، ومحاولة توظيف يـهود «المنفـى» فـى منفاهم، أى أوطانهم.

□□□

الشعب اليهودى وأوهام أخرى

ثمة نبوءات صهيونية أخرى ذات طابع إستراتيجى مهم لم تتحقـق مـن قريب أو بعيد:

١ - تنبأ الصهاينــة أنـهم سيؤسـسـون دولـة يهوديـة توفـر حيـاة سـوية للشعب اليهودى، خالية مـن الهامشـية والطفيليـة. وأن اليـهود سـيحققون انعتاقهم بجهودهم الذاتية. وما حدث هو أنه تم تأسيس دولة صهيونية من خلال القوى الإمبريالية، وهى دولة تعيش على المعونات ولا يمكـن لهـا أن تحقق البقاء دون الدعم المالى والسياسى والعسكرى الأمريكى الغربى.

٢ - لا يزال اليهود المنفيون يعانون مما يسميه الصهاينة ومعادو السامية «ازدواج الولاء الحضارى والسياسى». وقد عمَّق إنشـاء دولـة إسـرائيل هـذا الازدواج، لأن ولاءات اليـهود الآن موزَّعـة بـين دولتـين قـد ينشأ بينــهما تناقض فى المصـالح والقيـم (كمـا كـان الحـال بالنسـبة لليـهود السـوفيت، ويهود الكتلة الشرقية عامة).

٣ – والدولة اليهودية التى شيَّدها الصهاينة ليست هى المدينة الفاضلة التى تحدَّث عنها المفكرون الصهاينة بل إنها أبعد ما تكون عن أن تكون دولة «أمة الروح» التى تقدِّم لأمم الأرض مثلاً يُحتذى، إنها فى واقع الأمر ثكنات عسكرية ضخمة منظمة تنظيمًا عسكريًا رهيبًا لم يعرف مثله التاريخ الحديث حتى ولا فى ألمانيا النازية. وفى الآونة الأخيرة أصبحت بؤرة من البؤر الاستهلاكية، يدور أحلام سكانها حول الثلاثة V: الفيديو والفولفو والفيلا (حسبما جاء فى الصحف الإسرائيلية).

٤ – ادعى الصهاينة أن المجتمع الصهيونى (اليهودى) سيكون مختلفًا عن المجتمعات الأخرى، بسبب شخصية اليهود الفريدة. ولكن المجتمع الإسرائيلى يواجه معظم المشاكل التى يواجهها أى مجتمع صناعى حديث، وبذا تبخَّرت فكرة الشعب المختار الفريد بعد مواجهة قصيرة مع الواقع العملى. لقد أثبت الواقع أن مزاعم الصهاينة هى نتاج رؤيتهم الأسطورية، وأنها لا علاقة لها بأبعاد ما يسمونه الشخصية اليهودية. ويلاحظ كثير من المفكرين أن الدولة اليهودية لم تنجح حتى الآن فى إنتاج مفكر يهودى واحد له ثِقَل كبير (مع العِلْم بأنه لا يمكننا أن نَعد مارتن بوبر إسرائيليًا، فثقافته ألمانية)، ولهذا لا يزال يهود العالم منفصلين روحيًا عنها تمام الانفصال. بل ويفضِّل كثير من الباحثين الآن أن يميِّزوا بين اليهود (خارج فلسطين المحتلة) والإسرائيليين (وخاصةً الصابرا)، باعتبار أن الحضارة الإسرائيلية الحديثة نتاج ظروف مختلفة عن الظروف التى شكلت أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم.

٥ – تدَّعى الصهيونية أنها حركة «إنقاذ» لليهود من الاضطهاد والمخاطر التى تحيق بهم فى بلدان العالم المختلفة، وأنها ستحقِّق لهم الأمن. ولكن ظهر أنه بعد تأسيس إسرائيل زادت الهجمات على أعضاء الجماعات اليهودية، كما أن أعضاء التجمُّع الصهيونى ذاته تسيطر عليهم عقلية

الأقلية الفزعة: من تطرُّف وخوف دائم وتمجيد زائد لكل ما يتصل بهم وبتراثهم. ولعل رفض يهود العالم التصرُّف حسب النبوءة الصهيونية هو الذى تسبَّب فى الأزمة الاستيطانية، أى حاجة المستوطن الصهيونى إلى مادة بشرية قتالية ليقوم بوظيفته، وفشله المستمر فى الحصول عليها.

٦ - تنبأ الرواد الصهاينة بأنه سيتم تطبيع اليهود بحيث يصبحون شعبًا واحدًا متحدًا مثل كل الشعوب. ولكن أثبتت الأيام أن التجمُّع الصهيونى قد فشل فى إنجاز ما يسميه الصهاينة «ميزوج جاليوت» أى «مزج يهود المنفى» وما حدث هو أنه وصلت جماعات يهودية مختلفة ظلت محتفظة بعقائدها الدينية وعادتها الشعبية. ولذا لا يمكن القول بأن إسرائيل تضم شعبًا إسرائيليًا، وإنما تضم تجمُّعات إثنية ودينية مختلفة. فيهود الفلاشاه الذين يتحدثون الأمهرية وينتمون إلى الحضارة الإفريقية يختلفون بشكل جوهرى عن المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة، وكلا الفريقين يختلفان عن المستوطنين المرتزقة الوافدين من الاتحاد السوفيتى، الذين يضمون عددًا كبيرًا من اليهود غير اليهود (أى اليهود الذين فقدوا هويتهم الدينية والإثنية) بل ومن الأغيار من غير اليهود. وإلى جانب كل هؤلاء يوجد الكتلة البشرية الوافدة من المغرب، والتى تشعر بكيانها المستقل كمًا وكيفًا وتحاول أن يُسمع صوتها داخل النظام السياسى الإسرائيلى، بل ويُقال: إنها، بسبب يهوديتها الواضحة، تفكر جديًا فى قيادته لتحل محل القيادة العمالية العلمانية المتهالكة. ولم يفشل الصهاينة فى مزج المنفيين وحسب، ولا فى تخليق شعب واحد، بل فشلوا تمامًا فى تعريف اليهودى.

٧ - تنبأ الصهاينة بأن الدولة الصهيونية ستكون بمنزلة مركز روحى يمنع يهود العالم من الاندماج فى مجتمعاتهم، وبالتالى يحافظ على

هويتهم. ولكن الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي يتجه نحو الحضارة السائدة، وهي حضارة لا تساعدهم البتة مثل تطوير جوهرهم اليهودي المزعوم لأنها حضارة عملية علمانية. كما أن أعدادًا كبيرة من الشباب اليهودي المتمرد ينخرط في سلك الحركات اليسارية، وهي حركات دولية معادية للمفاهيم الصهيونية الضيقة، خاصةً وأن الصهيونية الآن غير قادرة على أن تبرز واجهة يسارية (كما كانت تفعل في الماضي)، ولذا فهي تقدِّم إسرائيل باعتبارها بلد المشاريع الرأسمالية الخاصة. ولهذا يكون قد فشل الصهاينة أيضًا في تحرير اليهود من «منفى الروح»، ولم تنجح الصهيونية في منع الشباب اليهودي من الانضمام للحركات الاشتراكية اليسارية (كما كانت تزعم).

٨ - بل يلاحظ داخل المستوطن الإسرائيلي أن نموذج الصابرا الجديد (أي الشباب الإسرائيلي الذي وُلد على أرض فلسطين المحتلة) يُكِنُّ الاحتقارَ الشديد لنموذج يهودي الدياسبورا (أي يهود العالم خارج فلسطين) الذي تتسم حياته بالسلبية وبالتقبُّل لحكم الجوييم (الأغيار). وقد ظهر هذا الاحتقار بصورة خاصة أثناء محاكمات إيخمان في تل أبيب حيث تبيَّن للجيل الجديد الإسرائيلي كيف أن اليهود ذُبحوا ذبح الشاة دون مقاومة أو كفاح. وبينما يتهم الصهاينة يهود المنفى بأنهم لا يشتغلون إلا بالأمور الكتابية والفكرية، نجد أن الصابرا معادٍ للعقل (أي إنه صهيوني حتى النخاع)، كما أنه معادٍ للفكر الإنساني عامة، وهو في هذا نتاج حقيقي للفكر الصهيوني أيضًا، خاصةً الصهيونية السياسية العملية، التي تعادي الأخلاق والفكر والتنظير، مفضلةً اللجوء إلى الفعل، والفعل السريع الذي لا يكترث بالتراث، كما أنه جيل تُسيطر عليه الثقافة الشعبية ذات الصبغة الأمريكية. ولذا تنتشر في إسرائيل أفلام رعاة البقر وأفلام الجريمة والإثارة الجنسية.

٩ – ولكن من أهم أوجه فشل الصهاينة في التنبؤ هو سقوط الأيديولوجية الصهيونية ذاتها كإطار يُدرك المستوطنون الواقع من خلاله، وكرؤية توجِّه سلوكهم وتحدِّد أولياتهم. فلم يعد يهود العالم يرون أن الصهيونية أيديولوجية لها أى مغزى بالنسبة لحياتهم في أوطانهم، ولم يعد المستوطنون يجدون أن لها علاقة بواقعهم، حتى أصبحت كلمة «تسيونوت» تعنى «كلامًا لا معنى له». وهذا الجانب من الفشل الصهيونى من الأهمية بمكان، حتى إننا سنفرد له مقالاً مستقلاً.

ويمكن أن نستمر في ذكر أوجه الفشل الصهيونى فى التنبؤ، ولكن مثل هذا الأمر قد يبعث على الملل، خاصةً بعد أن ذكرنا عشرات النبوءات الفاشلة. ويكفى هنا أن نشير إلى أن نبوءة هرتزل بخصوص إنشاء الدولة الصهيونية خلال خمسين عامًا، لم تكن مخططًا صهيونيًا رهيبًا، يقوم على تنفيذه مجموعة من البشر يتحكمون في مقدرات العالم، فهى كانت، كما نقول بالعربية «رمية من غير رام». والسياق الذى وردت فيه النبوءة يدل على أنها كانت عبارة بلاغية تعبِّر عن النشوة. إن دعاة الهزيمة يبحثون في الواقع عن شواهد تدل على قوة الصهاينة ومدى سيطرتهم على العالم، وبالتالى عبث التصدى لهم. و«نبوءة» هرتزل أعطتهم ذخيرة وفيرة. ولكنهم انتزعوا العبارة من سياقها، وأضفوا عليها هالة عجائبية، واستخدموها كعصى لضرب المقاومة وتطويعها. ولعلنا بحصر كل هذه النبوءات الفاشلة نبيِّن مدى هامشية نبوءة هرتزل وعدم دلالتها.



الفصل الثالث

الاستعمار الاستيطانى الصهيونى

المسألة اليهودية والمسألة الأوربية

نحن نذهب إلى أنه لا يوجد مسألة يهودية عالمية وإنما يوجد مسألة يهودية شرق أوربية، وهي مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا الذين كانوا يعيشون في مجتمعات تعثرت فيها عملية التحديث في الوقت الذى حدثت فيها طفرة سكانية بينهم فتحول أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية تقوم بوظيفة حيوية إلى جماعات وظيفية بلا وظيفة، وبالتالي تحولوا إلى فائض بشرى. بدءوا في الهجرة إلى غرب أوربا. فواجهت أوربا إشكالية هذا الفائض البشرى الذى كان يهدد أمنها الاجتماعي، وبدأت تتخذ إجراءات للحد من هذه الهجرة. فلورد بلفور، على سبيل المثال، استصدر، حينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء في بريطانيا عام ١٩٠٥، قانون الغرباء لمنع اليهود من دخول إنجلترا، وطرح الحل الغربي للمسألة اليهودية.

ولا يمكن فهم هذا الحل إلا في إطار ما أسميه «المسألة الأوربية»، وهو مصطلح قمنا بسكه لوصف ظاهرة لها انعكاسات عالمية. ولا يمكن فهم كثير من الظواهر في كل أنحاء العالم، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، إلا في علاقتها بالمسألة الأوربية. ويمكننا بشيء من التبسيط غير المخل أن نرى القانون العام الذى كلن يتحكم بأوربا في القرن التاسع عشر، فقد تفجرت داخل هذه القارة ثورة صناعية غيَّرت من علاقة الإنسان بالطبيعة تغييرًا جوهريًا فاستطاع الإنسان أن ينتج وفرة من السلع تفوق بمراحل ما يمكنه استهلاكه. ولكن هذه الوفرة من السلع - هذا «الخير» إن أردنا استخدام مصطلح أخلاقي - لم يحسن استخدامه بأى شكل، فالثروة في

حد ذاتها لا تنتج ولا تثمر شيئًا وما يهم هو كيفية استخدامها وكيفية توزيعها واستهلاكها، ولذا فالثورة الصناعية فى أوربا قد نتج عنها خلل اجتماعى رهيب. فالسلع الوفيرة لم توزع بالعدل بين الناس مما أدى إلى انقسام المجتمع إلى أغلبية من الفقراء المعدمين الذين ينتجون ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب فقرهم، وأقلية من الأثرياء الذين لا ينتجون، ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب قلة عددهم. وقد تسبَّب هذا فى دورات من الكساد الاقتصادى حيث تتكدس السلع التى لا يستهلكها أحد، والعمال العاطلون غير قادرين على استهلاك شيء. ولذا فحل المسألة الأوربية في ذلك الوقت كان يتلخص في تصريف الفائض السلعى والفائض الإنسانى والتخلص منهما. بل إنه ظهرت مشكلة أخرى وهى الحاجة للمواد الخام اللازمة للمصانع (أو الطواحين الشيطانية كما سماها أحد الشعراء) حتى تدور ولا تتوقف قط عن الدوران وتنتج السلع التى لا يستهلكها أحد. ولكن الثورة الصناعية ذاتها سخَّرت الطاقة لخدمة الإنسان وجعلت من اليسير عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان بيسر وسهولة، كما أصبح من الممكن لأى إنسان، بغض النظر عن أصله القومى أو الثقافى، أن يقطن فى أى مكان يختاره «حارًا شديد الحرارة أو باردًا شديد البرودة».

هذه العوامل مجتمعة (الفائض السلعى - الفائض البشرى - القدرة على التوسع والانتشار فى كل بقاع الأرض) تشكِّل جوهر المسألة الأوربية فى القرن التاسع عشر، كما تشير إلى الحل الأساسى المطروح. والحل - فى اقتصاد مبنى على الإنتاج والتصدير - كان هو تصدير المشاكل الأوربية إلى شعوب آسيا وإفريقيا، وتصدير المشاكل هو فى جوهره الاستعمار، إذ جيَّشت أوربا الجيوش وبنت الأساطيل وأنتجت السلاح واقتسمت العالم

كله (باستثناء بضعة جيوب صغيرة نائية مثل اليابان كانت تحف بمحاولة استعمارها مصاعب كبيرة)، والاستعمار الغربى كان ضروبًا وأصنافًا، فحل مشكلة الحصول على المواد الخام وتصريف السلع المباشرة كان يتطلب أن تسير الجيوش وتخضع البلاد التى تشكل مصدرًا للمواد الخام أو سوقًا محتملة للسلع فتسلبها الإرادة السياسية والاقتصادية وتحولها إلى مصدر أساسى للمواد التى يريدها المستعمر، وتحطم صناعاتها الأساسية التقليدية والجديدة لتحولها إلى سوق خصب للسلع، وهذا ما حدث فى مصر والهند، حيث تحولت مصر إلى مزرعة قطن لمصانع لانكشير، وكانت القوى الأوربية قد حطمت كل الصناعات التى أسسها محمد على وأغرقت مصر بالديون. هذا النوع من الاستعمار يمكن أن نسميه «الاستعمار التقليدي».

أما مشكلة تصريف «الفائض البشرى» فتتطلب نوعًا آخر من الاستعمار. فبعد أن كانت جيوش أوربا الاستعمارية تسيطر على بلد ما كانت تخصص مناطق معينة لتوطين السكان الأوربيين فيها، ومن هنا كانت تسمية هذا النوع من الاستعمار بـ «الاستعمار الاستيطانى أو السكانى». فإذا كان الاستعمار التقليدى يأخذ شكل جيش يغزو بلدًا مًا ثم يستغله ككل لصالح البلد الغازى، فإن الاستعمار الاستيطانى يأخذ شكل نقل مستوطنين أوربيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطنًا جديدًا لهم. ورغم اختلاف هذين النوعين من الاستعمار إلا أنهما مع هذا يشكلان وحدة لا تنفصم عُراها. فكلاهما يشكل بُعدًا استراتيجيًا للقارة الأوربية، وكلاهما يشكّل قاعدة انطلاق. فالجيوش تحمى المستوطن، والمستوطن يشكل قاعدة سكانية للجيوش، ولا يمكن بأية حال فصل الاستعمار الفرنسى فى المغرب وتونس حيث كان يأخذ شكلاً تقليديًا، عنه فى الجزائر حيث كان

يأخذ شكلا استيطانيًا. وليس من قبيل الصدفة أن طلائع الاستعماريين الاستيطانيين الصهاينة وصلت إلى فلسطين فى عام ١٨٨٢م وهو نفس العام الذى دخلت فيه الجيوش البريطانية مصر.

ورغم ترابط مظاهر الاستعمار كلها إلا أننا يمكننا أن نتصور الأنماط الاستعمارية المختلفة على شكل هرم، قاعدته ما يسمى «الاستعمار الجديد» أو «النظام العالمى الجديد»، وهو أقل أنواع الاستعمار وضوحًا (وإن كان أكثرها شيوعًا فى الوقت الحاضر بعد سقوط الهيمنة الإمبريالية القديمة)، لأنه يلجأ إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية عن طريق بعض أبناء البلد ذاتها، كما يمنحهم شيئًا من الاستقلال السياسى ويغويهم بحلم المشاركة فى استغلال الشعوب. ويعلو هذا النمط فى الدرجة الاستعمار التقليدى، حيث يمارس المستعمر الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة، ويتحكم فى مقادير الشعوب عن طريق الغزو العسكرى المباشر والاحتفاظ بقوات عسكرية لتحمى مصالحه ضد القوى القومية المحلية. يعلو هذا النمط الأخير الاستعمار الاستيطانى، بأشكاله المختلفة:

١ - الاستعمار الاستيطانى الاندماجى، الذى يبدأ فيه العنصرالدخيل، بالهيمنة على السكان الأصليين ثم الاندماج معهم بعد حين، إلى أن يمتزج الطرفان كلية مكونين كتلة إثنية جديدة (كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية).

٢ - الاستعمار الاستيطانى المبنى على التفرقة اللونية (كما هو الحال فى جنوب إفريقيا)، حيث يحتفظ العنصر السكانى الدخيل باستقلاله، ويلجأ إلى عزل السكان الأصليين داخل مناطق محدودة حتى يسهل استغلالهم (كما بيّنا من قبل).

٣ - فى أعلى الهرم يوجد الاستعمار الاستيطانى الإحلالى (كما هو الحال فى الولايات المتحدة وفى إسرائيل) حيث يظل العنصر البشرى

الدخيل محتفظًا باستقلاله عن السكان الأصليين، ثم يحاول التخلص منهم عن طريق إبادتهم ونقلهم خارج الحدود، فالآبار تهايد (الانفصال اللونى الكامل) لا يحل مشكلة الاستعمار الصهيونى بمنطلقاته الأيديولوجية (وإصراره على دولة يهودية خالصة). والاستعمار الإحلالى يضمن الاستقرار العنصرى والاجتماعى الداخلى للمجتمع الاستيطانى، وفى الوقت ذاته يشوه بشكل كامل البناء الاقتصادى والحضارى للسكان الأصليين الذى تم طردهم. وبذا يكون الاستعمار الصهيونى الاستيطانى/ الإحلالى أعلى مراحل الاستعمار وأكثر أشكاله شراسة وعنفًا.

هذا هو الإطار الذى تم من خلاله حل مسألة أوربا اليهودية: تصديرها إلى العالم العربى، وتأسيس دولة وظيفية، استيطانية إحلالية، بحيث تقوم الجماعة الوظيفية اليهودية التى فقدت وظيفتها بوظيفة جديدة، فبدلاً من التجارة والربا، ستقوم الدولة الوظيفية بالقتال دفاعًا عن المصالح الغربية.

□□□

المسألة الفلسطينية والإدراك الصهيونى

الظاهرة الصهيونية ظاهرة استعمارية استيطانية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وهذه المقاومة ليست إرهابًا وإنما هى فعل من أفعال المقاومة. وكما بيَّنا فى مقال سابق هذا ما أدركه بن جوريون نفسه عام ١٩٣٨ حين اعترف بأن مقاومة العرب ليست إرهابًا وإنما حرب قومية أعلنها العرب علينا. وأشرنا إلى موشيه شاريت بأن مقاومة الفلسطينيين للصهاينة هى ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القومية الحقة.

وإدراك الواقع فى لحظة صدق لا يعنى البتة التعامل معه بطريقة أخلاقية أو واقعية، بل إن إدراك الصهاينة لحقيقة مشروعهم الصهيونى

الاستيطاني الإحلالى وأبعاد المقاومة العربية وعمقها قد يؤدى إلى مزيد من الشراسة. ولنضرب مثلاً على هذا النمط الصهيونى بفلاديمير جابوتنسكى - زعيم الحركة الصهيونى التنقيحية - الذى أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمى، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية عن الحقوق اليهودية الأزلية، ولم تختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعمارى الغربى الذى لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السيف، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تمامًا مثلما يتسلح المستوطنون الأوربيون فى كينيا وفى كل مكان)، أى طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيونى، فالعرب - حسبما صرَّح - لن يقبلوا الصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم فى مواجهة حائط حديدى.

إن نظرية الجدار الحديدى هى جزء من الإجماع الصهيونى التى طورها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذى»، وأكد نتنياهو، ووافق باراك عليها بطريقة ملتوية مراوغة فى كتابه «مكان تحت الشمس» فى عبارة «سلام الردع».

ويتحدث إيان لوستيك فى مقال له بعنوان «إسرائيل ومنطق الجدار الحديدى» عن مراحل خمس لاستراتيجية الجدار الحديدى، لتحويل الصراع الوجودى بين الصهاينة والعرب الفلسطينيين إلى سلام قائم على التوافق وليس العدل، على النحو التالى:

المرحلة الأولى: بناء الجدار الحديدى.

المرحلة الثانية: حماية الجدار الحديدى من محاولات تصديعه.

المرحلة الثالثة: هزائم مكلفة تؤدى إلى تحولات لدى الخصوم، من متطرفين عنيدين إلى معتدلين على استعداد للمساومة.

المرحلة الرابعة: يدرك حماة الجدار الحديدى تحولات القوة من التطرف إلى الاعتدال داخل المعسكر السياسى للخصم، وذلك يدفعهم إلى تحويل سياستهم نحو التفاوض والمساومة.

المرحلة الخامسة: تؤدى المفاوضات إلى تسوية للصراع تقوم على جماعية متساوية.

ونفس النتيجة توصَّل إليها بن جوريون، إذ إن إدراكه للمقاومة العربية كان يحيِّده التزامه بالرؤية الصهيونية، ولذا توصَّل إلى أنه لا مناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيونى عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مستحيل، كما لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا سراب بغير شك، إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، «إن الشعب اليهودى لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض. ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا فى إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولى عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم فى الاضطرابات التى يثيرونها أو التمرد الذى يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة فى هذا البلد]. ثم استمر يقول: لا يوجد مَثل واحد فى التاريخ لأمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]. إن تشخيصى للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأننى أؤمن بالقوة، قوتنا التى ستنمو، وهى إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه». وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب».

ولا يختلف شاريت عن هذه الرؤية التى تذهب إلى أن المثل الأعلى الصهيونى لابد أن تسانده القوة حتى يمكن فرضه على الواقع. وهو أيضًا يتبنَّى سياسة الحائط الحديدى، شأنه فى هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكى: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكنى أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقًا ثابتًا مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسى هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية».

وقد أدرك وايزمان منذ البداية أن أى سلام مبنى على العدل – أى يؤدى إلى إعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية والدينية والمدنية كافة– عواقبه وخيمة، إذ سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور». فلو تم تأسيس حكومة فى إطار هذا السلام العادل، فإن العرب سيمثّلون فيها، وهى حكومة ستتحكم فى الهجرة والأرض والتشريع – وبذا سيحقق الصهاينة السلام – ولكنه «سلام المقابر» (على حد قوله). والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقفهم، وكانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم، وإنما للآخرين. ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتنسكى ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقًا مع العرب باعتبارهم كيانًا مستقلاً له حقوقه وفضاؤه التاريخى والجغرافى، إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدى، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التى يفرضها الآخر. وهذه رؤية ولاشك واقعية: إذ كيف يمكن أن يتوقع أحد من العرب أن يخضعوا طواعية لرؤية تلغى وجودهم؟

هذا – على كلٍ – ما أدركه العرب منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن السلام والحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية

والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون حقيقة الصهيونية وأنها تحاول أن تغيبهم أو تهمشهم لأنهم - حسب التصور الصهيوني - كائنات غائبة (أرض بلا شعب) أو متخلفة أو هامشية لا تفهم سوى لغة القوة، وأنهم قد يكتفون في نهاية الأمر بدولة لا سيادة لها، وأنهم سيستمرون خائفين قانعين بحياتهم المتخلفة. فجاءت انتفاضة ١٩٨٧، وظهر العرب الغائب وفي يده حجر يُلقى به على الصهيوني وعلى أوهامه، فيشج رأسه ويزلزل الأسطورة، ويتنبه هذا الصهيوني فجأة إلى أنها أرض لها شعب.

ثم جاءت انتفاضة الأقصى والاستقلال لتقضي على بقية الأوهام الصهيونية وتساقطت مقولتا العربي المتخلف والعربي الهامشي، فتفككت الخريطة الإدراكية الصهيونية، فجُن جنون الصهاينة، فلجأت المؤسسة الصهيونية (التي طالما تحدثت عن إسرائيل باعتبارها واحة للديمقراطية) إلى ضرب العسكريين والمدنيين بالطائرات والمدافع والرشاشات، وبدأ الاغتيال المؤسسي للقيادات الفلسطينية والاغتيال العشوائي للنساء والأطفال وكل من يقف في طريق جيش الاحتلال. وانتهى الأمر بوصول شارون الذي وعد بالقضاء على الانتفاضة في مائة يوم، وقد انقضت المهلة دون أن ينجح في تحقيق وعده، وليس هناك في الأفق ما يبشر بأنه سيُكتب له النجاح.

□□□

عيد «استقلال» الدولة الاستيطانية

لجأت كثير من الحركات العنصرية الفاشية إلى تبني المصطلحات الدينية وتفريغها من محتواها الأخلاقي والروحي، واستخدامها في تعبئة الجماهير خلف صفوفها. والصهيونية من أكثر الحركات العنصرية حذقًا في هذا المضمار. وقد طوَّرت خطابًا عنصريًا باطشًا من خلال تبني المصطلحات الدينية اليهودية التقليدية، فإرتس يسرائيل أو صهيون تعني

في السياق الديني أن يحب اليهودى أرض الميعاد ولا يستولى عليها، بل ولا يعود إليها إلا آخر الأيام بأمر إلهى. لكن الصهاينة استولوا على المصطلحات الدينية ثم استخدموها في تجنيد جماهير يهود شرق أوربا. فصهيون بالنسبة للصهاينة لم تكن أرضًا ذات قداسة خاصة، وإنما كانت مجرد أرض يُنقل إليها اليهود لأسباب مادية. ولم يطالب هرتزل بالقدس، وإنما طالب بالأرض العلمانية فقط (على حد قوله): أرض صالحة للتقسيم والتوزيع والاستيطان. ولذا يصبح من الممكن على الصهاينة أن يستولوا على هذه الأرض لتصبح جيبًا استيطانيًا يضم بعض أعضاء الجماعات اليهودية ممن نبذتهم المجتمعات الغربية. وعادةً ما تنتهى مصادرة المصطلح الدينى لصالح الأهداف المادية بأن تصبح الأمور الدنيوية أمورا مقدسة. وهذا ما حدث بالنسبة لذكرى إعلان الدولة الصهيونية (١٤ مايو حسب التقويم الميلادى - ٥ آيار حسب التقويم اليهودى). فإعلان الدولة الصهيونية كان يعنى فى واقع الأمر الاستيلاء على أرض الفلسطينيين وإبادة بعضهم وطرد البعض الآخر وتأسيس جيب استيطانى. إحلالى مبنى على العنف والبطش.

كل هذا يختفى وبدلاً من ذلك يتحول ١٤ مايو إلى مناسبة قومية تكتسب أبعادًا دينية. ولذا تأخذ الاحتفالات شكلاً قوميًا/ دينيًا (وهذا تعبير عن محاولة الصهاينة ربط العقيدة اليهودية بالرؤية القومية الزمنية).

١ - الشكل القومى: تبدأ احتفالات العيد على جبل هرتزل فى القدس بجوار مقبرته. ويبدأ المتحدث باسم الكنيست الاحتفال بأن يوقد شعلة، ثم اثنتى عشرة شعلة أخرى رمزًا للقبائل العبرية الاثنتى عشرة، ثم يسير حملة المشاعل فى استعراض. وكان الاستعراض العسكرى للقوات المسلحة الإسرائيلية، والذى كانت تُعرَض فيه أحدث الأسلحة التى حصلت عليها الدولة، أهم فقرات الاحتفال، ولكنه توقف بعد عام ١٩٦٨. وقد حل محله

الآن استعراض عسكرى لفصائل الجدناع. وتُقام احتفالات رياضية وراقصة، كما تُمنَح جوائز إسرائيل فى ذلك اليوم. وينتهى الاحتفال بإطلاق المدافع، على أن يكون عدد الطلقات مساويًا لعدد سنى الاستقلال، ولهذا فقد أطلقت أربعون طلقة عام ١٩٨٨.

٢ - الشكل الدينى: يبدأ الاحتفال بقراءة المزامير (١٠٧، ٩٦، ٩٨)، وينتهى بالنفخ فى البوق (شوفار) الذى لا يُستخدَم إلا فى المناسبات الدينية الجليلة مثل عيد رأس السنة (روش هشّاناه). وتُتلى العبارات التالية: «فلتكن مشيئتك أن تجعل من نصيبنا أن نسمع الشوفار يعلن مقدم الماشيح سريعًا، كما جعلت من نصيبنا أن نرى بداية الخلاص». وتُعدَّل الصلوات فى ذلك اليوم، كما هو الحال دائمًا مع الأعياد اليهودية.

وبرغم صبغ المناسبة القومية بصبغة دينية فاقعة، فإن بعض العناصر التى يقال لها «دينية» فى إسرائيل لا ترى أن تعبير الحاخامية عن أهمية المناسبة كاف. وبالفعل، فقد أدخلت هذه العناصر كثيرًا من التعديلات على الصلوات، كما قرروا قراءة أجزاء من التوراة (من سفر التثنية ٧/ ١ - ٨/ ١٨ و ٣٠/ ١ - ٠١). وهناك دعوة الآن إلى إلغاء يوم الصيام الخاص بهدم الهيكل وبسقوط القدس فى أيدى الرومان باعتبار أنه تم استردادها كما تم إنشاء الهيكل الثالث (الدولة الصهيونية).

وقد قامت الأوساط غير الدينية، هى الأخرى، بصياغة قراءات وأدعية للاحتفال بهذا اليوم على نمط الاحتفال بعيد الفصح. وقد كتب المؤلف الإسرائيلى حاييم حزاز هاجاداه (كتاب صلوات) للجيش الإسرائيلى بهذه المناسبة. أما وزارة المعارف، فقد نشرت مختارات وأدعية، وقررت شرب ثلاث كئوس من الخمر (على غرار الكئوس الأربعة فى عيد الفصح): أولاها

للدولة، والثانية للقوات المسلحة، والثالثة للشعب اليهودى. ومن بين الإضافات الأخرى، إعلان عدد السنوات التى مرت منذ استقلال الدولة قبل النفخ فى البوق (شوفار) فى صلاة المساء، وهم فى هذا يتبعون نمطًا دينيًا معروفًا لدى يهود اليمن الذين يتبعون النهج السفاردى، إذ يُتلى دعاء يذكر فيه المصلون السنوات التى مرت منذ هدم الهيكل. أما العبارة التى تُتلى فى عيد الاستقلال فى إسرائيل، فهى: «اسمعوا يا إخوتى،... اليوم [كذا] مضت [كذا] بسنوات منذ بداية خلاصنا، وعلامته تأسيس الدولة». ولعل تغيير الصلوات والأدعية للتعبير عن المناسبة القومية، وكذلك صياغة الاحتفال بعيد الاستقلال على نمط الأعياد اليهودية، خصوصًا عيد الفصح، تعبير آخر عن تداخل الجانب الدينى والجانب القومى، والمطلق والنسبى، الذى هو بدوره تعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجى اليهودى.

ولكن هناك فريقان لا يريان أن إعلان دولة إسرائيل مناسبة للفرح والغبطة:

١ - الفريق الأول هو جماعة الناطورى كارتا، وهى عبارة أرامية تعنى «نواطير المدينة»، أى حراس المدينة. والمدينة هى مدينة القدس، باعتبارها رمزًا لأرض صهيون بالمعنى الدينى. هذه الجماعة ترى أن الصهيونية مؤامرة شيطانية ضد اليهود واليهودية، وأنها تقوم بتطويع العقيدة اليهودية لخدمة المآرب العلمانية الصهيونية. وجماعة ناطورى كارتا تمثل أقلية صغيرة للغاية، ومع هذا ينبغى أن نشير إلى أن موقف الناطورى كارتا كان هو الموقف اليهودى الأرثوذكسى قبل «صهينة اليهودية» وقبل مصادرتها لحساب الرؤية الصهيونية. وتعتبر جماعة الناطورى كارتا يوم استقلال إسرائيل يوم صوم وحداد، ويحرقون فيه علم إسرائيل.

٢ - الفريق الثانى هو عرب فلسطين المحتلة، فهم يعرفون تمامًا أن «استقلال إسرائيل» يعنى نجاح الجماعات الإرهابية الصهيونية، بدعم كامل من العالم الغربى، فى أن تؤسس دولة استيطانية استعمارية لا تختلف عن الجيوب الاستيطانية فى جنوب إفريقيا أو الجزائر، ولذا فهم يشيرون لاستقلال إسرائيل على أنه «النكبة» باعتبار أنه ذكرى ما حلّ بهم من تشريد وتشتيت واستبعاد. وفى إطار انتفاضة الأقصى والاستقلال، قرر المتنفضون أن يحتفلوا باستقلال إسرائيل على طريقتهم الخاصة، وهى أن يذكّروا المستوطنين بأن عيد استقلالهم هو فى واقع الأمر ذكرى اغتصاب الأرض وأن المستضعفين، قد يصمتون بعض الوقت، ولكن تأتى اللحظة التى يهبون فيها، ولذا وضعت الدولة الصهيونية القوات الإسرائيلية على أهبة الاستعداد وأغلقت كل المنافذ للأراضى التابعة للسلطة الفلسطينية، أى إن الدولة الصهيونية اضطرت إلى إسقاط جميع أقنعة القداسة والحداثة والحضارة، وإلى الإفصاح عن وجهها الحقيقى فى عيد استقلالها، أى فى عيد اغتصابها الأرض الفلسطينية وتشريدها للشعب الفلسطينى.

□□□

حرب قومية

صنفنا الظاهرة الصهيونية على أنها ظاهرة استعمارية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وتتسم الرؤية الصهيونية الاستيطانية (والرؤى الاستيطانية على وجه العموم) بأنها تحاول أن تنكر تاريخ الأرض التى احتلها المستوطنون، فسكان فلسطين غائبون، ففلسطين - حسب تصوُّرهم - هى أرض بلا شعب. ولكن هذه ا لرؤية العنصرية أحيانًا ما تتساقط فى لحظات صدق نادرة تتجاوز الاعتذاريات الصهيونية البلهاء. وفى مثل هذه اللحظات يدرك

الصهاينة أن الأرض مأهولة وأنهم اغتصبوها من أهلها وأنهم سيشتبكون معهم. ففى خطاب له فى ٩ يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الماباى عرَّف موشيه شاريت الثورة العربية بأنها ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القومية الحقة، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة لهم هى وحدة مستقلة لها وجه عربى، وهذا الوجه آخذ فى التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية، وها هى ذى قد أضحت يهودية. ورد الفعل - كما أكد شاريت - لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفى ٢٨ سبتمبر من العام نفسه، كان شاريت قاطعًا فى تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة، كما لاحظ وجود عناصر جديدة فى حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات فى حركة المقاومة، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبيَّن أن من أهم دوافع الثورة الرغبة فى إنقاذ الطابع العربى الفلسطينى وليس مجرد معارضة اليهود.

وقد توصَّل بن جوريون لنفس النتائج وبطريقة أكثر تبلورًا عام ١٩٣٨ حين قال: «نحن هنا لا نجابه إرهابًا وإنما نجابه حربًا، وهى حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب لما يعتبرونه اغتصابًا لوطنهم من قبل اليهود - ولهذا يحاربون، ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات، يجب ألا نبنى الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، فإذا ما نال من أحدهم التعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذى يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعًا.. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا - فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. ومن الناحية

السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصوورهم».

أقوال شاريت وبن جوريون تنم عن إدراك عميق للوجود الصهيونى باعتباره وجودًا استيطانيًا إحلاليًا، وللمقاومة العربية باعتبارها ثورة المقهورين ضد الظلم. ولكن الاستعمار الاستيطاني الإحلالى الصهيونى، مثل أية ظاهرة أخرى، له خصوصيته التى تميِّزه، التجارب الاستيطانية الأخرى. وتنبع هذه الخصوصية من عنصرين أساسيين:

١ - فشل الجيب الاستيطانى الإحلالى الصهيونى فى إبادة السكان الأصليين الذى يعود للأسباب التالية:

(أ) يتكون الفلسطينيون من جماعة بشرية موحدة لها تاريخ طويل وتراث مركب، وهى جماعة، فى غاية التركيب والوعى، قادرة على استخدام كل الأسلحة الممكنة بما فى ذلك الإعلام، ومثل هذه الكتلة ليست سلبية، تجلس فى مكانها دون حراك، بينما يقوم عدوها بذبحها ذبح الشاه.

(ب) منذ نهاية القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيونى) أصبح أصغر فى حجمه وأكثر اتصالاً بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام إلى كل أرجائه. وقد تزايدت هذه العملية، مما يجعل عمليات الإبادة أمرًا مستحيلاً، فهى عادةً ما تتم وراء ستار كثيف من الصمت، حتى لا يحتج أحد.

(جـ) توجد فلسطين فى وسط العالم القديم ومن ثم يصعب إبادة سكانها.

(د) يحيط الفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع الفلسطينيين وقضيتهم وتزودهم بالعون.

٢ - تزايد عدد السكان الأصليين وتصاعد كفاءتهم:

نجم عن فشل الجيب الصهيونى فى تصفية السكان الأصليين عدة نتائج من أهمها ما يسمَّى «المشكلة الديموجرافية (السكانية)»، أى تزايد عدد الفلسطينيين بدرجة كبيرة، مما يهدد الطابع اليهودى الإحلالى لهذا الجيب. والفلسطينيون لا يتزايدون فى العدد وحسب وإنما تزداد نسبة المتعلمين بينهم ويتحسن أداؤهم وتتزايد مقاومتهم يومًا بعد يوم.

وقد فاقم من هذه المشكلة الديموجرافية عنصران: جفاف ينابيع المادة البشرية الاستيطانية (خاصةً بعد الهجرة السوفيتية الأخيرة، واضعين فى اعتبارنا أن يهود العالم الغربى لا يهاجرون قط) وضم الجيب الصهيونى للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ اللذين يتسمان بكثافة بشرية عربية.

كل هذا أدى إلى اتضاح زيف الافتراض الصهيونى المبدئى أن فلسطين أرض بلا شعب، مما يعنى أن فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع يحتاج إلى مزيد من العنف. ولكن العنف لا يؤدى إلى تخفيف وطأة الهاجس الأمنى. فالإسرائيلى يعيش فى خوف دائم من العرب، وهو محق فى خوفه هذا، فقد اغتصب أرضهم وشردهم وهو يعلم أنهم لن يستسلموا ولن يقبلوا وضعهم هذا. ولذا نجد أن كل اتفاقيات «السلام» اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق أمن إسرائيل، هذا الشيء المستحيل (وقد أخبرنى أحد الأطباء النفسيين فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ أن المرضى النفسيين الإسرائيليين قد استبعدوا العربى تمامًا من أحلامهم وكوابيسهم، مما يعنى أن خوفهم قد بلغ من العمق أنه تم استبعاد العرب تمامًا، حتى على مستوى اللاوعى).

ولا شك فى أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التى قُدِّر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين. أما تلك التى لم تنجح فى ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب إفريقيا) فقد تم تصفيتها. وهو يعرف أنه لا يوجد أى سبب لأن يمثل الجيب الاستيطانى الصهيونى استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة. ولابد أن انتفاضة الأقصى قد رسَّخت هذا الإدراك.

□□□



الفصل الرابع

العنف الصهيونى

المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيونى

ظهر فى الآونة الأخيرة مصطلحات مثل «إيقاف العنف» و «وقف إطلاق النار» و «ضبط النفس» إشارة إلى ما يحدث فى فلسطين المحتلة. وهذه المصطلحات تحمل تحيزات محددة، فهى تصنِّف كلاً من المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيونى على أنهما نفس الشيء، وكأن هناك حالة حرب بين جيشين متكافئين أو شبه متكافئين يحاربان بخصوص قطعة أرض متنازع عليها، ولكل فريق حقوق متساوية فيها، وكأنه لا يوجد قرارات أصدرتها هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩ تعطى أحد الفريقين حقوقًا فى أرضه. إن هذه المصطلحات تسوِّى بين من يحمل السلاح ويدافع عن أرضه وكرامته وإنسانيته من جهة، ومن جهة أخرى من يغتصب الأرض وينكل بأصحابها ويستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية. ولنتصور لو سُميت الأشياء بأسمائها وقلنا «إيقاف المقاومة» أو على العكس قلنا «إيقاف أعمال الاغتصاب والقمع الإسرائيلى» ألن يكشف هذا التحيزات الكامنة؟

إن كلمة «مصطلح» من الفعل «اصطلح»، فيقال «اصطلح القوم»، أى «زال ما بينهم من خلاف» و «اصطلحوا على الأمر»، أى «تعارفوا عليه واتفقوا». والاصطلاح معناه اتفاق طائفة ما على شىء محدد، ولذا سمى «علم الاصطلاح»، «علم التواطؤ». ولكن فى حالة «وقف العنف» والمصطلحات الأخرى الشبيهه، هل اشتركنا فى تحديد معناها، أم أننا استوردناها ثم رددناها دون وعى من جانبنا للتحيزات التى تخبئها؟

الحال لا يختلف كثيرًا بالنسبة لمعظم المصطلحات التى تُستخدم لوصف الظواهر اليهودية والصهيونية مثل «الشعب اليهودى» أو «الوحدة

اليهودية» أو «العبقرية اليهودية». ونحن لو دققنا النظر لوجدنا أن أصل معظم هذه المُصطلَحات هو المُصطلَح التوراتى «الشعب المختار أو الشعب المقدس»، وهو مُصطلَح يفترض أن اليهود يكونون كتلة بشرية تتسم بقدر كبير من الوحدة والتماسك يتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، كتلة لها «تاريخ يهودى» مستقل يتسم بقدر عال من الوحدة والاستمرارية. ولذا فالإنسان الغربى يرى أعضاء الجماعات اليهودية - رغم تنوعهم الهائل - على أنهم يكونون كيانًا واحدًا رغم أن هؤلاء اليهود كانوا عبرانيين فى بادئ الأمر ثم تطورت عقيدتهم من العبادة الإسرائيلية القربانية إلى العقيدة اليهودية الحاخامية، وتفرع عنها اليهودية السامرية، وظهر كذلك القراءون والمارانو والدونمه والفلاشاه. ثم نجد فى العصر الحديث اليهود من المحافظين والإصلاحيين والأرثوذكس، ثم اليهود الملحدين والإثنيين وغيرهم. وتوجد عشرات الجماعات اليهودية غير المتجانسة سياسيًا وحضاريًا. كل هؤلاء رآهم الغرب داخل تحيزه التوراتى باعتبارهم العبرانيين أو اليهود أو الشعب المختار الذى تمتد إليه ذراع الإله القوية تقوده فى خروجه من مصر وتجواله فى أرض التيه وفى صعوده إلى أرض الميعاد!

ومن المُصطلَحات الأخرى التى اخترقت معجمنا مُصطلَحات مثل: «المنفى» و «الشتات» و «الدياسبورا»، وهى مُصطلَحات تفترض أن ثمة علاقة عضوية بين «الشعب المختار» و «الأرض الموعودة» أو بين اليهود وفلسطين، وأن ثمة مركزية لليهود فى تاريخ فلسطين ومركزية لفلسطين فى تاريخ اليهود، إذ إن الرب قد وعد شعبه بفلسطين وجعلها مقصورة عليه. ورغم أن هذه الأرض المقدسة كانت تُدعى «رتنو» عند الفراعنة، ثم أصبحت «كنعان»، وأصبح ساحلها يُدعى «فلستيا»، ولفترة وجيزة سُميت بعض أجزائها «يهودا وإسرائيل» ثم سمُيت كلها بعد ذلك

«فلسطين»، وأصبحت مقاطعة رومانية ثم بيزنطية مسيحية وأخيرًا جزءًا من الدولة الإسلامية، إلا أنها تجمدت وتحولت في الوجدان الغربي إلى إرتس يسرائيل.

ولأن اليهود شعب واحد نُفي من «أرضه الموعودة» قسرًا، ولأنه مرتبط عضويًا بها، فإن هذا الشعب يتطلع دائمًا إلى «العودة» إلى أرض الأجداد. ومُصطلَح «العودة» لا يمكن فهمه إلا في إطار الإيمان بمركزية فلسطين في حياة اليهود، فهم حينما يبتعدون عنها فإنهم «يتشتتون» ويشعرون بالغربة و «النفي»، ويريدون «العودة» إليها. وعبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لا يمكن فهمها إلا في إطار تصور أن اليهود شعب واحد مستمر في وحدته عبر التاريخ، وفي رغبته في العودة، وأن أرض فلسطين هي أرضه، إن تركها تصبح أرضًا فارغة من السكان بلا شعب، تنتظر سكانها من أعضاء الشعب اليهودي ليعودوا إليها، فهم العنصر المركزي بالنسبة إليها، وما عدا ذلك فهو شيء عرضي غير أصيل. وهم حينما يعودون ليسوا مغتصبين للأرض وإنما «رواد» صهاينة، فالرائد هو من يصل إلى أرض خراب فارغة لا يوجد سكان فيها. وإن استوطن هذا الشعب في أرض غير فلسطين فهو شعب بلا أرض. ولتحقيق الاستمرارية ولرأب الصدع لابد أن يعود الشعب للأرض وتعود الأرض للشعب فيعم السلام ويسود الوئام. ولذا عُرِّفت الصهيونية بأنها «عودة اليهود لأرض الأجداد».

وغني عن القول أن مُصطلَح «العودة» شأنه شأن المُصطلَحات الأخرى («الشعب اليهودي» و «التاريخ اليهودي» و «الشتات» و «النفي») التي تشكل حجر الأساس في العقيدة الصهيونية تتنافى كلها تمامًا مع الواقع التاريخ للجماعات اليهودية وفلسطين. ففلسطين عامرة بسكانها، واليهود ليسوا شعبًا كما أسلفنا، بل جماعات، وهم لا يريدون العودة إلى أرض

الأجداد، فهم قابعون بأوطانهم التى يقطنـون فيـها، وإلا لِمَ ظلـت غالبيـة أعضاء «هذا الشعب» فى أوطانه ولم يسـارع بـالهجرة أو بـالعودة إلى وطنـه الأصلى؟ ولِـمَ لا تـزال غالبيـة يـهود العـالم خـارج وطن الأجـداد، تتمتـع بمستويات معيشية مرتفعة فى الولايات المتحدة وكنـدا وفرنسـا وأسـتراليا.. إلخ، و «يعانون» من معدلات عالية من الإندماج والـزواج المختلـط! (الـذى يسميه الصهاينة «الهولوكوست الصامت»)؟

و «وقف العنف» هو خط طويل من المصطلحات المتحـيزة ضدنـا. فنحـن نرى أن وجود القوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية هـو احتـلال للأراضـى الفلسطيينة، وتؤيدنا فى ذلك قرارات هيئة الأمم المتحـدة، ولكـن إسـرائيل والولايات المتحدة يسـتخدمون بـدلاً مـن ذلـك عبـارة «أرض متنـازع عليـها disputed territiory». وقـد تحدثـوا بعـض الوقـت عـن «الأرض مقـابل السلام»، وقد تطـور هـذا ليصبـح «الأرض مقـابل الأمـن» و «الأمـن مقـابل الأمن»، إلى أن تدهور الأمر تمامًا وأصبحت المسألة «الأرض مقابل الكـلام». وكل هذه الشـعارات تـهدف إلى فـرض المفـاهيم الصهيونيـة الأمريكيـة فـى السلام، والتى تعنى فى واقع الأمر الاستسلام وقبول تقسيم دولـة فلسـطين إلى كانتونات وبقاء المستوطنات والرضوخ للمطـالب الإسـرائيلية فـى القـدس الشرقية، وأخيرًا التنازل عن الحق الفلسطينى التاريخى فى عودة اللاجئين الفلسطينيين.

ولكن يوجد استثناء واحد لهذه الظـاهرة، وهـى كلمـة «انتفاضـة» التـى تتلألأ كالنجم الساطع فى سمائنا، وكالشمس الحارقة فى سمائهم. وحينمـا ظهرت كلمة «انتفاضة» لأول مرة مع انتفاضة ١٩٨٧، حاول بعض الكُتّـاب إسقاطها وإحلال الكلمة «ثورة» محلها. ولكن كلمة «انتفاضة» مناسبة تمامًا لوصف ما حدث فى فلسـطين عـام ١٩٨٧، ومـا يحـدث فيـها فـى الوقـت

الحاضر. والكلمة مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» يعنى «حرّكه ليزول عنه الغبار أو نحوه». ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى لم يضرب جذورًا فى تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذى علق بالثوب الفلسطينى ولم يمس الجوهر. ويقولون أيضًا «نفض المكان» أى «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا «تاكتيك» معروف لدى شباب الانتفاضة، ويقولون أيضًا «نفّض الطريق» أى «طهّره من اللصوص». ويقال «النفضة» وهى «جماعة يُبعثون فى الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف»، وهذا أيضًا تاكتيك آخر للمنتفضين. و تحمل الكلمة أيضًا معانى الخصوبة فيقال «نفض الكَرْم» أى «تفتحت عناقيده». ويقال - وهذا هو الأهم - نَفَضَت المرأة» أى «كثر أولادها»، و «المرأة النفوض» هى المرأة كثيرة الأولاد، أى المرأة التى لا تكف عن الإنجاب تمامًا مثل الأنثى الفلسطينية. وانظر كذلك إلى تعبيرات مثل «نفض عنه الكسل» و «نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفًا»، وهى كلها اصطلاحات تعنى أن ما يحدث الآن كان هناك دائمًا.

إن «الانتفاضة» (بما تحمل من معانى الخصب والاستمرار والتجذر من نفسه) ليست «ثورة» (بكل ما تحمل من معانى الاحتراق والبدايات الجديدة). إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التى سُلبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائمًا عبر التاريخ وكما ستكون بإذن الله فى المستقبل. ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة - الذين اختاروا المصطلح - معرفة بكل هذا وإدراكا واعيًا له. ولكن لا يمكن أيضًا أن ننكر إحساسهم الحضارى السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسى والمعرفى عن النموذج الغربى. فقد آثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة الدالة والتى

لا نظير لها فى اللغات الأوربية (ومن هنا يكتبون فى الصحف الغربية كلمة «انتفاضة» بحروف لاتينية intifada مما ينم عن إدراكهم لخصوصيتها). إن المناضلين الفلسطينيين فى اختيارهم لكلمة «انتفاضة» وضعوا أيديهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخى المبارك: وهو أنه تحرك يتم داخل إطار الهوية التى تمتد من الماضى عبر الحاضر إلى المستقبل بإذن الله.

شارون والعقلية الإسرائيلية

تقول إحدى الأساطير اليهودية القديمة إن السيف والتوراة نزلا من السماء ملفوفين معًا، كما تقول إحدى الصلوات اليهودية: «فلتحل البركة على إله القوة الذى يُدرِّب يَدَىَّ على الحرب وأصابعى على القتال»، وتحمل كل وحدة من وحدات الجيش الإسرائيلى تابوتًا توضع فيه التوراة نُقشت عليه هذه العبارة: «انهض بالله ودع أعداءك يتشتتون واجعل الذين يكرهونك يهربون أمامك». وهذا التقليد بعث لتقليد دينى قديم حينما كان بنو إسرائيل يسيرون يحملون «تابوت العهد» أو التابوت الذى كانوا يتصوَّرون أن روح الله تحل فيه وتسير معهم أينما ساروا تهدى خطاهم وتحارب معهم وتهديهم سواء السبيل.

وحتى نفهم شارون حق الفهم، وتفهم العقلية الإسرائيلية، يجب أن ندرك أن معظم اليهود حين يتحدثون عن «إله» فإنهم لا يتحدثون عن إله العالمين وإنما عن إله قومى، مقصور على اليهود، إله اختارهم هم دون البشر. ولكن، كما يقول بن جوريون: «إذا كان الإله قد اختار اليهود، فهم أيضًا قد اختاروا إلهَهُم». ويؤكد الحاخام كوك أن روح الإله وروح يسرائيل (الشعب اليهودى) واحدة، أى أن الإله والشعب المختار يدخلان فى علاقة تبادلية تتسم بالندية، الشعب لا يقل قداسة عن الرب، مما يعنى تهويد الإله وتأليه اليهود، فهما يكوِّنان وحدة واحدة. ولذا يمكن لجابوتنسكى أن

يشير إلى الشعب اليهودى بوصفه ربه. بل يمكن القول إن ثمة فكرة أساسية تسيطر على العقل الإسرائيلى وتوجهه، وهى أن ثمة وحدة كاملة وعلاقة عضوية صارمة بين الإله والشعب والأرض، ولذا يمكن لموشيه ديان أن يشير إلى الأرض باعتبارها ربه.

وهذه الرؤية لا تختلف كثيرًا عن رؤية الشعوب القديمة الوثنية. فإله كل شعب كان مقصورًا عليه، لا تتجاوز مقدرته حدود أرض هذا الشعب. ولذا كان على الإنسان الوثنى القديم، أن يقدم القرابين إلى آلهة المكان الذى ينتقل إليه. وحين كانت تحدث زيجات ملكية بين شخصين من مملكتين مختلفتين، كانت الملكة الجديدة تحضر معها تمثالاً من تماثيل آلهتها، وبعض كهنة العبادة التى تنتمى إليها، لتستمر فى عبادة إله وطنها! ولهذا السبب نفسه كان إله إسرائيل «ينتقل» معهم فى تابوت العهد من مكان لآخر، فيحتفظون بذلك برعايته وبقداستهم.

ولكن الأهم من كل هذا أن إله المكان يحابى شعبه ويتحيز له ويكيل للشعوب بمكيالين، فشعبه مقدَّس، أما بقية شعوب الأرض فمدنسة. وتتجلى هذه الفكرة فى العقيدة اليهودية. فقد جاء فى سفر أشعياء (٦١/ ٥-٦) «ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجبرهم تتآمرون». كما جاء فى سفر ميخا (١٢/٤) «قومى ودوسى يا بنت صهيون لأنى أجعل قرنك حديدًا أظلافك أجعلها نحاسًا فتسحقين شعوبًا كثيرين».

وهذا التقسيم للعالمين إلى يهود يقفون داخل دائرة القداسة، وأغيار يقفون خارجها يضع اليهودى فوق التاريخ وخارج الزمان ويمنحه حقوقًا مطلقة فى فلسطين التى يدَّعى أنها أرضه، إرتس يسرائيل، التى تدخل دائرة القداسة معه.

وبظهور حركة الاستنارة في الغرب، كان لها صداها بين اليهود، فظهرت حركة إصلاح ديني فككت من قبضة هذه الرؤية العنصرية. ولكن الصهاينة بعثوها مرةً أخرى بعد أن فرَّغوها من مضمونها الديني، وأصبحت دعوة للتفوق العِرْقي (والصهاينة في هذا لا يختلفون كثيرًا عن المفكرين الاستعماريين الذين أطلقوا الادعاءات بخصوص الإنسان الأبيض وتفوقه الحضاري، الذي أعطاه حقًا مطلقًا في استعمار الأرض وفي إبادة الشعوب أو استغلالها). بل لعلها كانت أكثر حدة وتطرفًا بسبب أن التراث الديني اليهودي، في بعض نواحيه، قد ألَّه الشعب وهوَّد الإله. ولكن عملية التأليه لما هو غير إلهي، وتهويد مما لا يقبل التهويد جعل التحالف بين اليهود العلمانيين والمتدينين ممكنًا، ولذا نلاحظ أن صياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي ودَيَّان العلمانية الإلحادية متشابهتان تمامًا، فكلتاهما تنتهيان إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة في أرضه المقدَّسة، فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه (حسب صياغة المتدينين)، وهو شعب/ إله، وأرض/ إله في صياغة العلمانيين، والفارق بين الاثنين أمر شكلي.

هذه الرؤية تفسر لنا تصوُّر شارون (والمستوطنون الصهاينة من ورائه) أنه يمكنهم الاستمرار في المناداة «بحق» العودة ليهود العالم إلى فلسطين المحتلة (فقد تركوها منذ عدة آلاف من السنين) وينكرون نفس الحق على الفلسطينيين (الذين تركوها منذ عدة أعوام. فاليهود (بعد تأليههم) لهم حقوق مطلقة، أما الفلسطينيون فليس لهم حقوق على الإطلاق، أو حقوقهم هامشية عرضية إذا ما قيست بحقوق اليهود، إن الشعار القديم «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض» يجب أن تُعاد قراءته على النحو التالي: «أرض [مقدَّسة] بلا شعب [لأن الشعب الذي يقطنها غير مقدَّس] لشعب «مقدس» بلا أرض [مقدَّسة] ولأن الشعب مقدَّس، فالعنف الذي يرتكبه ضد الآخرين هو الآخر مقدَّس. ولذا ذهب الحاخام كوك إلى أن الجيش

الإسرائيلى هو القداسة الكاملة، وهو الذى يمثِّل الحُكم لشعب الإله فوق أرضه، أما بن جوريون فقد قال: «إن خير مفسِّر للتوراة هو الجيش الإسرائيلى». ولا يختلف العلمانيون عن ذلك، فقد غيَّروا العبارة التوراتية». إن القداسة تنتشر فى بداية الأمر من الإله إلى كل ممتلكات اليهود، ثم تتركز فى الشعب، وتزداد تركيزًا فى الجيش، وتصل إلى درجة البلورة والتجسُّد فى شخص «المسيح المخلِّص اليهودى» الذى سيأتى ليُنقذ شعبه ويقودهم إلى صهيون ليحكم العالم.

ويبدو أن شارون تحيط به بعض هذه الادعاءات، ففى حرب ١٩٧٣ حين «نجح» فى الالتفاف حول القوات المصرية وإحداث الثغرة كتب الجنود الإسرائيليون على دبابته «شارون... ملك إسرائيل» (وملك إسرائيل هو أحد ألقاب المسيح المخلص اليهودى) بمعنى أن الرجل الذى سيُخلِّص إسرائيل وسيقود شعبه إلى الأمن النهائى المطلق والأزلى قد وصل!! وقد تواترت نفس العبارة أثناء الانتخابات الأخيرة.

فمن هو ملك إسرائيل الجديد؟ هو أريئيل صموئيل مردخاى شرايبر، وهو من يهود بولندا أصلاً (مثل معظم مؤسسى الدولة الصهيونية ولكن توجد فى حياته عدة تجارب أساسية لعلها شكلت رؤيته. ففى عيد ميلاده الخامس (عام ١٩٣٣) أهداه أبوه مسدسًا ليُبيِّن له كيف يمكن للمستوطنين الاستيلاء على وطن الآخرين. أما أمه فكانت تعرف كيف تحسم المعارك بطريقة بسيطة سهلة. ففى نزاع حول الأرض فى الثلاثينات تركت أطفالها عند جيرانها وخبأت بندقية فى العربة وسلحت نفسها بمقص أسلاك ضخمة وقفزت فى اتجاه موضع النزاع وقطعت السور الذى كان يضايقها. ثم أرسله أبوه إلى الكلية الزراعية ولكنه لم يكن راغبًا فى الدراسة، فهو يفضِّل الفعل والحركة والمسدس والمقص.

وقد اشترك فى حرب عام ١٩٤٨ وأصيب فى بطنه بينما كان يحرق أحد الحقول، وكاد يُقتَل لولا أن قام جندى شاب بنقله إلى مكان آمن، ولعل هذه الحياة العسكرية التى أفقدته ولاشك طفولته وصباه هى التى حوَّلته إلى «شيء هادئ الأعصاب.. لا يمكنك أن تعرف إن كنت تحبه أو تكرهه، إن كنت تعجب به أم تخاف منه» (كما يقول بعض معارفه)، أى إن شارون شيء مصمت لا أبعاد إنسانية له، وولاؤه الحقيقى هو للعنف المسلح. إن البيئة المسلحة التى نشأ فيها شارون ساهمت فى خلق الرجل/الشيء، الذى سمي فيما بعد البولدوزر، لأنه يتحرك كالآلة المدمرة.

ولكن البولدوزر الذى يقوِّم بحل المشاكل بضربة واحدة (مثل أمه ذات المقص والبندقية) هل هو قادر على فرض السلام الإسرائيلى، ذى المرجعية الصهيونية، أى السلام الذى يحوِّل القدس إلى عاصمة أزلية، ولا يفك المستوطنات، ويُبقى الدولة الفلسطينية دولة منقوصة السيادة، مجرد عدة كانتونات منفصلة، ويمنع ملايين الفلسطينيين من العودة إلى ديارهم، ويرفض الشرعية الدولية، نقول هل هو قادر على فرض السلام؟ وللحديث بقية.

□□□

جنرال اليأس الإسرائيلى

انتخاب شارون بهذه الأغلبية الساحقة هو تعبير عن التشدد الصهيونى، ولكنه أيضًا تعبير عن اليأس الإسرائيلى. وارتباط تصعيد العنف باليأس والإحساس بعدم الأمن ظاهرة متواترة بين المستوطنين فى كل الجيوب الاستيطانية. وهو أمر متوقع، فمع تصاعُد مقاومة السكان الأصليين، يتوارى حلم المستوطنين بالأمن الدائم تدريجيًا، فيتخندقون ويصعِّدون العنف، وقد «ينجحون» فى إخماد المقاومة بعض الوقت، ولكنهم مع هذا

يدركون تماماً أن هذا «النجاح» لن يؤدى إلا إلى هدنة مؤقتة، تتبعها هجمات وانتفاضات، ومن هنا العنف، ومن هنا اليأس.

وشارون نموذج جيد على هذا، فقد أحرز «نجاحات» عديدة فى حرب عام ١٩٤٨ إلا أنه مع هذا وجد نفسه يحارب ضد «المتسللين» العرب عاما بعد آخر. وبدأت حلقة العنف واليأس. ففى عام ١٩٥٢ حمل شارون مسدسه ومقصه هو وثمانية آخرون وقطعوا الأسلاك الشائكة وعبروا الحدود لينسفوا بيت أحد الفدائيين العرب المشهورين «بتسللهم» عبر الحدود. وقد وُصفت العملية آنذاك بأنها «ناجحة»، مع أنها نسفت بيتًا غير البيت المقصود. •

ومع هذا نظرًا «لنجاح» العملية، قرر الجيش الإسرائيلى الاستمرار فى مثل هذه العمليات. فتقرر تشكيل وحدة للعمليات الخاصة (وحدة رقم ١٠١) لتقوم بعمليات إرهابية ضد العرب. فقاد شارون جنوده (و «شياطينه» كما كانوا يدعون) فى أول حملة رسمية سرية غير تقليدية (أى إرهابية) يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٣ فاتحة إلى قرية قبية العربية الفلسطينية التى تقع شمال القدس على بُعد كيلومترين من حدود إسرائيل. وفى الساعة السابعة والنصف من ذلك اليوم طوّقت قواته القرية وغمرتها بوابل من نيران المدفعية فدكت القرية دكا على من فيها ثم تقدّم المشاة فأجهزوا على الباقين على قيد الحياة. وقد دلت مواضع الإصابات فى أجسام الضحايا الذين سقطوا قرب أبواب بيوتهم من الدخل على أنهم لم يعطوا فرصة مغادرتها (كما يقول تقرير قائد مراقبى هيئة الأمم). واستعمل فى هذا العدوان جميع أسلحة المشاة من بنادق ورشاشات برن وستن وقنابل يدوية وقنابل حارقة ومتفجرات، وقد كانت جميع مخلفات الغارة من الأسلحة تحمل شعارات إسرائيل وكتابات بالعبرية. ويتلخص «نجاح» شارون هذه المرة فيما يلى:

١ – نسف ٤١ دارًا للسكنى.

٢ – قتل ٦٩ شخصًا نصفهم من النساء والأطفال.

٣ – قتل ٢٠ رأسًا من الماشية بينها بقر وخراف وماعز.

ولكن يبدو أن «نجاح» عملية قبية الباهر لم يؤت أكُله، إذ إننا نجد أن الجنرال اشترك بعد ذلك فى حروب عديدة، الواحدة تلو الأخرى دون توقف. وكانت آلة الحرب التى يستخدمها دقيقة الصنع تحرز نجاحات «عديدة متتالية». ولكن ألا يثير تكرار «الحروب الناجحة» بعض الشك عن مدى نجاحها، لأن الحرب «الناجحة» حقًا هى الحرب التى تحقق السلام والطمأنينة والأمن الدائم للمحارب وأهله وشعبه.

وحينما تساقطت حوائط خط بارليف «الناجح» (وهو «نجاح» عاش الإسرائيليون فى ظلاله الثابتة لمدة أعوام ستة)، وحينما عبرت القوات المصرية قناة السويس وسقطت القوات الإسرائيلية فى هوة اليأس قام الجنرال بعملية الدفرسوار التى أدت إلى احتلال أجزاء من الضفة الغربية للقناة. ولكن يُقال إن صحفيًا سأل موشى ديان عن الحدود الجديدة التى «نجحت» إسرائيل فى الحصول عليها وعما إذا كانت أكثر أمنًا «ونجاحًا» من حدود ١٩٦٧ الآمنة الشهيرة! كان رد ديان إنه ليس لديه متسع من الوقت للإجابة على مثل هذه الأسئلة.

واستمرت «النجاحات» التى لا تنتهى، فبعد أن أحيل إلى الاحتياط عقب الحرب سارع إلى استثمار السمعة العسكرية التى جناها من الحرب لدخول الساحة السياسية، شأنه شأن كثير من الجنرالات الإسرائيلية. وبعد مفاوضات مع عدة جبهات استقر به المقام فى تكتل الليكود. ثم أحرز شارون «نجاحًا» آخر. فقد كان هو المحرك الرئيسى وراء غزو لبنان عام ١٩٨٢، الذى سُمى بعد قليل المستنقع اللبنانى. وقد قام بتضليل رئيس

الوزراء آنذاك، مناحم بيجن. وفى أثناء غزو لبنان ارتكبت مذبحة صابرا وشاتيلا على يد بعض المليشيات المارونية وبتغطية كاملة من الجيش الإسرائيلى. وأقيمت لجنة تحقيق رسمية حملته المسئولية.

□□□

على عرفات أن يوقف الانتفاضة

من القضايا التى تواترت مؤخرًا فى الخطاب التحليلى الغربى والصهيونى الحديث عن من هو المسئول عن «اندلاع العنف». وعادة ما تُنسب المسئولية لياسر عرفات، باعتباره المسئول الأساسى وربما الوحيد عن الانتفاضة. وانطلاقًا من هذا يطالب المجتمع الدولى (أى الغربى) عرفات «بإيقاف فورى للعنف».

ومصدر الخلل الأساسى أن العالم الغربى (بما فى ذلك الصهاينة) قد أخفقوا فى رؤية ما يحدث، على أرض فلسطين المحتلة، على أنه مقاومة شعبية نبيلة للاحتلال، يقوم بها شعب يرفض الظلم ويطالب بحقوقه الشرعية، وهى مقاومة مشروعة، حسب القوانين الدولية والأعراف الإنسانية. ما يحدث فى فلسطين - فى تصورهم - هو مجرد أعمال شغب وعنف يحركها بعض هواة العنف والإرهاب الذين يطمعون فى تحقيق المكاسب الشخصية.

ولكن أى طفل بوسعه أن يرى الحقيقة، ويعرف أن ما يراه الغرب والصهاينة هو مجرد أوهام، وأنهم حينما يطلبون من عرفات أن يوقف العنف (أى المقاومة) ويلقى القبض على المجاهدين فإنهم يطلبون المستحيل. ولذا فالسؤال يطرح نفسه وبإلحاح شديد، ما الذى يجعل أهل الغرب يظنون ما يظنون؟ كى نفهم هذا لابد أن نعود لأسطورة التشكيل

الاستعماری الاستيطاني الغربي بشكل عام (والصهيونية إن هـي إلا إحـدى تبديات هذا التشكيل). نقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين هـي إنكار تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون إليها ويستوطنون فيـها، والتـي يـرون أنـها أرض عـذراء. والصهاينـة ليسـوا استثناء لهـذه القـاعدة، فـهم يزعمـون أن فلسطين إن هـي إلا إسـرائيل أو صـهيون وأن تاريخها توقف تمامًا برحيل اليهود عنها.

وإن حدث أن كتانت الأرض العذراء مأهولـة فـإن أسـطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العـدد، متخلفـون يفتقـرون إلى الفنـون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعيـة الكامنـة فـى الأرض وهم عادةً مجرد رحالة لا يستقرون في أرض ما، وهم شعب لا تـاريخ لـه، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومـن ثـم لا حقـوق لهم، ويمكن إبادتهم إن ثبت أن ضررهم أكثر من نفعهم.

وهذا لا يختلف البتة عن التصور الصهيوني للعرب فقد لخـص وايزمـان الصراع العربي الإسرائيلي بأنه «الصـراع الأبـدى بـين الجمـود مـن جهـة، والتقدم والكفاءة والصحـة والتعليـم مـن جهـة أخـرى. إنـها الصحـراء ضـد المدنية». وقد لاحظ أحاد هعام (مؤسس الصهيونية التـي يقـال لهـا روحيـة أو ثقافية) أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة وينظـرون إليهم باعتبارهم متوحشين صحراويـين، وعلـى أنـهم شـعب يشـبه الحمير ولا يرون ولا يفهمون شيئًا مما يدور حولهم.

أمـا الشـاعر الصـهيوني تشرنحوفسـكي فـي قصيدتـه «وقـف الحراسـة» فيتحـدث عـن (الأغيـار بمـا فـي ذلـك العـرب) بوصفـهم رجـال الصحـراء المتوحشين.

أما الفيلسوف الأمريكي البراجماتي الصهيوني، هوراس كالن، فإنه لم ير العربي إلا في صورة شيخ قبيلة في صحراء النقب، يلبس هو وأولاده ساعات مستوردة لا تبين الوقت، ويحملون أقلامًا لا يستعملونها في جاكتات غربية يرتدونها فوق جلابيبهم. ووظيفتهم الأساسية هي تهريب الحشيش بطبيعة الحال.

إن التفكير الصهيوني تفكير غربي استعماري عنصري حتى النخاع، ولذا فهو يتسم بالتعميم والتجريد والانتقاء، فالمستوطن الصهيوني إن لم يفعل هذا وجد نفسه أمام وجود إنساني متعين، له قداسته وله قيمته الإنسانية والحضارية، الأمر الذي يجعل من العسير عليه تقبل الاعتذاريات التي تهوغ استغلال العرب وإبادتهم، وتحويلهم إلى مجرد شيء يُنقل من مكان لآخر. كما يفعل هوارس كالن في محاولته رسم صورة الفلسطيني في المستقبل، كما يحب أن يراها، فقال: «لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كافٍ من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سُبل العيش المعقولة. وقيل لهم إن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبدًا، لو حدث هذا لبدءوا عندئذٍ في الاعتماد على النفس».

إن العرب في المنظور الإسرائيلي الصهيوني شيء يهدد الصهاينة بالخطر. ولذا نجد أن مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة حيفا (حسبما جاء في جريدة يديعوت أحرنوت) بيَّن أن ٦٨٪ فقط من سكان الدولة العبرية سيكون من اليهود في عام ٢٠٢٠، وذلك بعد أن يرتفع عدد العرب من ١,٣ مليون (اليوم) إلى ٢,١ مليون، وقد جاء في البحث أن عدد سكان الضفة الغربية وقطاع غزة سيرتفع من ٣ ملايين إلى ٨ ملايين.

وحسب البروفيسور أرنون سوفر فإن العرب يشكلون اليوم ٤٩,٥٪ من سكان الكيان الصهيوني والضفة والقطاع، وفي عام ٢٠٢٠ سيشكلون ٥٨٪،

ويعتقد قادة مركز أبحاث الأمن القومي أن البعد الديموجرافي والتكاثر الطبيعي المرتفع وسط السكان العرب داخل الكيان الإسرائيلي وخاصة الضفة والقطاع سيقوضان الديمقراطية في الدولة العبرية ويهددان بخطر فقدان مناطق جغرافية مثل الجليل والنقب الشمالي «حسب زعمهم».

ويسود الاعتقاد لدى الباحثين أن الكثافة السكانية العالية ستجعل من الدولة الصهيونية دولة عالم ثالث وتسبب في تدهور بيئي في كل أنحاء البلاد. والمتضررون الأساسيون سيكونون من السكان اليهود الذين يسكنون السهل الساحلي الذين قد يهاجرون من البلاد. وكذلك «ثمة إمكانية عالية أن يوحّد السكان الفلسطينيون داخل الخط الأخضر والضفة والقطاع والأردن قواهم إلى درجة التقارب بينهم مما يمكنهم في قادم الأيام من العمل معًا إلى جانب أشقائهم في شرقي الأردن من أجل إقامة الدولة الفلسطينية الكبرى من البحر إلى الصحراء» (نشرة العودة ١٥ يونية ٢٠٠١).

وهذا لا يختلف كثيرًا عما جاء في مقررات مؤتمر «ميزان القوة والأمن القومي الإسرائيلي» (الذى عقُد في هرتسليا وحضره شخصيات إسرائيلية بارزة قيادية أمنية وأكاديمية - حسبما جاء في صحيفة هآرتس ٢٣/ ٢٠٠١٣). وقد تم الحديث في هذا «المؤتمر العلمي» عن إمكانية نقل العرب وترحيل السكان خارج الحدود والعمل على اتخاذ خطوات تمنع زيادة نسبتهم.

إن العرب، في المنظور الصهيوني، مجرد أشياء يمكن تحريكها من مكان لآخر (كما يمكن بطبيعة الحال إبادتها). تصدر لها الأوامر بالتحرك فتتحرك، ثم يصدر لها أوامر بالتوقف فتتوقف. فالفلسطينيون ليسوا كائنات حية، حياتها وطاقتها وحيويتها تنبع من داخلها، وإنما هم كائنات آلية يمكن تحريكها من الخارج، تمامًا كما يفعلون في مسرح العرائس. ولعل رسالة وايزمان إلى أينشتاين (بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٤٩)

تلخص الموقف، فهو يرى العرب باعتبارهم شعبًا غير مستعد للديمقراطيــة، يحاول الجرى قبل أن يستطيع السير، ولذا من السهل أن يقع تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك!

والصهاينة جاهزون بهذا التفسير السهل دائمًــا، فحينما يتمـرد العـرب ويقاومون الظلم ويعبرون عن غضبهم فى أوائل القـرن، فـهذا ليـس بثـورة، كما أكد إسحق بن تسفي، رئيس دولة إسرائيل الســابق، وإنمـا هـو مجـرد مذبحـة حـرَّض عليـها قنصـل روسـيا القيصرى. وفـى هـذا الإطـار حــاول الصهاينة إنكار وجود أية هوية سياسية للعرب عامـة، وللفلسـطينيين علـى وجه الخصوص، أو أية مشاعر قومية من جانبهم. فالصهاينة فـى إدراكـهم للثـورات العربيـة عليـهم، ينكـرون طبيعتـها القوميـة والسياسـية ويؤكـدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع إليها ليـس حـب الأرض أو الوطـن أو التمسـك بالتراث، فالدافع إليها هو التعصـب الدينـى. وقـد كـان الصهاينـة يلومـون المسـيحيين العـرب، أحيانًـا، باعتبـارهم الأعـداء الحقيقيـين لمشــروعهم الاستيطانى، ويصورون المسلمين فى صورة الفريق الطيب الذى يمكن التفاهم معه. وكانوا أحيانًا أخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقى، وأن المسيحيين هم الفريق الذى يبـدى اسـتعدادًا كبـيرًا للتعـاون. وكانت الجماهـير الفلسـطينية بالنسـبة إليـهم مجـرد غوغـاء يتلاعـب بـها المهيجون الإقطاعيون والأفندية ولا تحركها الدوافع القوميــة. ويـرى سمحـا فلابان أن وايزمان كان يؤمن إيمانًا راسخًا بــأن تمـرُّد هـذه الجماهـير ليـس تعبـيرًا صادقًـا عـن حركـة قوميـة خلاقـة وإنمـا كـانت تمليـه الاعتبــارات الإقطاعية والقَبَلية الضيقة.

وإلى جانب هــذا، كـان الصهاينـة يـرون الفلسـطينى أو العربـى حيوانًـا أو مخلوقًا اقتصاديًا محضًا تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. ولذا، فيمكن

حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) في إطار اقتصادى لا يكون سياسيًا بالضرورة. ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الإستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربى الذى تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل الأرض الجديدة القديمة، فهو يؤكد أن الوجود الصهيونى قد عاد على العرب بالنفع الكبير: لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيرًا وبركة، خصوصًا بالنسبة لملاك الأراضى لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة. وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون إيمانًا راسخًا بإمكان التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التى سيجلبها الاستيطان الصهيونى، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية بعد إعطائهم التعويض الاقتصادى المناسب عن وطنهم. وكانت إحدى القناعات الإدراكية عند وايزمان أن تطوُّر فلسطين سيؤدى إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

هذا هو الأساس الإدراكى لطلب العالم الغربى والصهاينة من ياسر عرفات أن يوقف الانتفاضة.


الفصل الخامس
الانتفاضة

الانتفاضة والهجرة الاستيطانية

توجد فى العبرية كلمة «هجيراه» وهى كلمة محايدة تعنى «هجرة» أى «مجرد انتقال من مكان إلى آخر بغرض السكنى والاستقرار فيه». ولكن بدلاً من أن يستخدم الصهاينة هذه الكلمة للإشارة إلى الهجرة الصهيونية استخدموا كلمة «عالياه»، وهى كلمة عبرية مشتقة من «يعلو». ولكلمة «عالياه» العبرية معانٍ عدة: أولها «الصعود إلى السماء»، وثانيها «الصعود لقراءة التوراة فى المعبد أثناء الصلاة»، وثالثها «الصعود إلى إرتس يسرائيل (أى أرض إسرائيل) بغرض الاستيطان الصهيونى». والصهاينة قد فعلوا ذلك ليحيطوا عملية الاستيطان الاستعمارى الصهيونى بهالات من القداسة، وكأن اغتصاب فلسطين من أهلها وطردهم منها هو فعل دينى.

ولكن بغض النظر عن الحيل اللفظية الصهيونية، لابد أن نذكر أنفسنا بأن إسرائيل جيب استيطانى، يقوم بوظيفة عسكرية وهى الدفاع عن مصالح الغرب فى المنطقة، وقد وعد القائمون على المشروع الصهيونى بتقديم المادة البشرية اللازمة للقيام بهذه المهمة، وبالتالى يكون تدفق هذه المادة عليها أمراً أساسياً وجوهرياً بالنسبة لها. ومن المفارقات الكبرى أن توسع الجيب الاستيطانى جعله فى حاجة ماسة إلى المستوطنين للقيام بعمليات الاستيطان والتجارة والقتال.

ولكن - على الرغم من هذا - نجد أن يهود العالم محجمين عن الهجرة إلى إسرائيل، فهم فى حالة سعادة غامرة فى بلادهم. (يعيش فى العالم حالياً ١٣,٢ مليون يهودى من بينهم ٨,٩ يهودى [٩٣٪] فى أنحاء العالم و ٤,٩ ملايين يهودى [٣٧٪] فى إسرائيل). ورغم أن

عدد يهود الولايات المتحدة يبلغ الآن خمسة ملايين ونصف مليون فلم يهاجر منهم عام ١٩٩٩ سوى ١٣٢٣، أى حمولة طائرتين جامبو. وهذا الرقم أقل ١٥٪ من عدد المهاجرين العام الذى يسبقه (١٥٥٦). (الجيروساليم بوست ٢٥ فبراير ٢٠٠٠).

ولذا اضطرت الدولة الصهيونية الاستيطانية لحل أزمتها السكانية بأن تلجأ لتهجير الفلاشاه، وهم جماعة صنفها عِلْم الأنثروبولوجيا الغربية على أنهم جماعة شبه يهودية. ثم سمحت بهجرة مئات الآلاف من المهاجرين اليهود السوفييت التى تعلم مسبقًا أنهم ليسوا يهودًا أصلاً. (ترى بعض الأوساط الدينية اليهودية فى إسرائيل أن عدد غير اليهود بين المهاجرين السوفييت يبلغ حوالى ٥٠٪). وفى التماس قدمه بعض اليهود السوفييت (الجيروساليم بوست ١٠ إبريل ٢٠٠٠) ذكروا أن عددًا ممن هاجروا ليسوا غير يهود وحسب وإنما هم من أعداء اليهود واليهودية (أعداء السامية). وأنهم هاجروا لتحسين مستواهم المعيشى ومن هنا انغماسهم فى أعمال الجريمة (من دعارة وتهريب مخدرات وفرض إتاوات). وقد طالب الملتمسون بتعديل قانون العودة حتى يتسنى منع مثل هؤلاء من الهجرة إلى إسرائيل.

ومع نضوب مصادر الهجرة التقليدية فى شرق أوربا وإثيوبيا بدأ الصهاينة فى البحث عن مصادر بشرية أخرى. وتوجد فى العالم الآن ثلاثة تجمعات يهودية كبيرة نسبيًا يمكن أن تكون بمثابة خزان يمد المستوطن الصهيونى بالمادة البشرية اللازمة للاستيطان القتالى:

١ - الجماعة اليهودية فى الأرجنتين، وهى أقل من مائة ألف.

٢ - الجماعة اليهودية فى جنوب إفريقيا، وهى أقل من مائة ألف.

٣ - الجماعة اليهودية فى فرنسا، والبالغ عددها ٥٤١ ألف.

ويرى الصهاينة أنه كى يهاجر أعضاء الجماعات اليهودية يجب أن تكون هناك عناصر طاردة من مجتمعاتهم (والصهيونية تعيش على الكوارث كما قال أحد المفكرين اليهود المعادين للصهيونية) وأن تشكل إسرائيل بالنسبة لهم عنصر جذب. ولكن أعضاء التجمعات الثلاثة السابق ذكرها لا يعيشون في بلاد طاردة لليهود، ولذا لو قرروا الهجرة منها فسيكون ذلك لتحسين مستواهم المعيشى، وبالتالى ستكون هجرتهم - فى غالب الأمر - إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو كندا أو أستراليا، وهى بلاد تشكل عناصر جذب ليهود العالم.

وقد ورد فى صحيفة هاتسوفيه (فى عددها الصادر فى ٤ سبتمبر ٢٠٠٠) أن معاداة اليهود قد انخفضت معدلاتها فى معظم دول العالم، كما أن وضع اليهود بها أصبح أفضل من أى وقت مضى. وقد حذر الدكتور يعقوب الياف، مدير مركز الهوية اليهودية بجامعة بار إيلان، من أن اليهود آخذين فى الاندماج فى مجتمعاتهم، ويحصلون على المناصب التى يريدونها، وكل هذه الأمور تزيد من معدلات اندماجهم خلال جيلين أو ثلاثة أجيال.

وحسبما جاء فى جريدة يديعوت أحرونوت (فى عددها الصادر فى ٧ مايو ٢٠٠١) أن الوكالة اليهودية شرعت فى شن حملة لتشجيع الهجرة من ألمانيا التى هاجر إليها خلال السنوات العشر الماضية حوالى مائة ألف يهودى. ويجرى الإعداد لشن حملات تشجيعية مماثلة للمهاجرين الروس فى الولايات المتحدة. ولا ندرى ما هى الأسباب التى تدعو القائمين على الوكالة اليهودية أن يتصوروا أن يهود ألمانيا والمهاجرين اليهود إلى أمريكا سيتركون بلادهم ويهاجرون إلى إسرائيل، مع أنهم فضلوا هذه البلاد على الدولة الصهيونية فى المقام الأول.

وقد ازدادت أزمة إسرائيل الاستيطانية تفاقمًا مع اندلاع الانتفاضة. فقد جاء في جريدة معاريف (في عددها الصادر في ٧ مايو ٢٠٠١) أنه لن يهاجر إلى إسرائيل خلال العقد القادم سوى ٣٠٠ ألف مهاجر من دول الكومنولث (مقابل حوالى ٩٠٠ ألف خلال العشر سنوات الماضية)، وسيختار ٢٠٠ ألف يهودى التوجه إلى دول أخرى. ويرى سالى ميريدور، رئيس إدارة الوكالة اليهودية، أن عدد المهاجرين من روسيا ومن دول الكومنولث سوف يتقلص تدريجيًا خلال السنوات القادمة كنتيجة لتحسن الوضع الاقتصادى في روسيا والهجرة نحو الغرب وتدهور الوضع الأمنى في إسرائيل. ويشير ميريدور (حسبما جاء في جريدة يديعوت أحرونوت) أنه وصل في عام ٢٠٠٠ إلى إسرائيل ٦٠,١٣٠ مهاجر، مقابل ٦٧,٧٦٦ مهاجر كانوا قد وصلوا إليها خلال عام ١٩٩٩ بانخفاض قدره حوالى ٢٢٪، ويرى التقرير أنه على ضوء الأحداث الأمنية خلال عام ٢٠٠١ (أى الانتفاضة) فمن المتوقع ألا يصل إلى إسرائيل خلال هذا العام سوى ٥٠ ألف مهاجر فقط.

وتقلص أعداد المهاجرين هو تقويض للادعاءات الصهيونية وللمجتمع الاستيطاني الصهيوني. ولكن حتى تكتمل الصورة علينا أن ندرس النزوح عن المجتمع الصهيوني، وهذا ما سنفعله بإذن الله في المقال القادم.

□□□

الانتفاضة والنزوح

أشرنا - من قبل - إلى أن الصهاينة أحاطوا الهجرة الاستيطانية إلى إسرائيل بهالات من القداسة، فهم يرون أن علاقة اليهود بفلسطين (إرتس يسرائيل) علاقة مطلقة تستند إلى الوعد الإلهي، وهي لذلك لا تخضع لآية متغيرات تاريخية أو اجتماعية. ولكن الحقائق التاريخية والآنية تقول عكس ذلك، فأرقام الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين تدل على أن اليهود

لا يتدفقون على أرض الميعاد، وإنما يفضلون التدفق على الولايات المتحدة الأمريكية (التى استوطن فيها ٨٠٪ من كل المهاجرين اليهود). كما أن عدد النازحين من إرتس يسرائيل يبين أن اليهودى ليس مرتبطًا ارتباطًا عضويًا بأرض الميعاد، وإنما مرتبط بها ارتباطًا نفعيًا، ولذلك فهو يتركها/ ينزح عنها حينما يجد فرصًا اقتصادية أفضل فى بلاد أخرى، توفر له مزيدًا من الأمن الجسدى والاجتماعى.

والنزوح عن إسرائيل أو الهجرة المضادة تسمى فى المصطلح الصهيونى «يريداه» أى «النزوح» (وهى بذلك عكس الهجرة إليها «عالياه» أى «الصعود»). ويطلق على النازحين عن إسرائيل «يورديم» أى «الهابطين» أو «المرتدين». وعدد النازحين عن إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ يبلغ ما يزيد عن ٧٠٠ ألف وقد يصل إلى مليون (فأعداد النازحين أمر سرى). وهو نفس عدد سكان المستوطن الصهيونى فى عام ١٩٤٨ أو ربما يزيد قليلاً. وقد حدا هذا ببعض الصحف الإسرائيلية إلى الإشارة لهذه المفارقة، وسمتها «الخروج من صهيون». وكلمة «خروج» مرتبطة فى المعجم الدينى اليهودى بالخروج من مصر والصعود (عالياه) إلى صهيون. ولكن الأمر انقلب رأسًا على عقب وأصبح الخروج من صهيون وليس إليها. وكان قرار النزوح من قبل يُعدُّ جريمة أخلاقية وخيانة للمبادئ الصهيونية، ولكنه أصبح مقبولاً اجتماعيًا فى إسرائيل حيث يظهر بعض النازحين على شاشة التليفزيون الإسرائيلى ليتحدثوا عن قصص نجاحهم.

ويطلق على هؤلاء النازحين مصطلح «الدياسبورا الإسرائيلية» وهو مصطلح يسبب الحرج الشديد للصهاينة، لأن الحركة الصهيونية حركة تهدف إلى «جمع المنفيين» من اليهود ولم شتاتهم، وما يحدث بالفعل أن هذه الحركة تصدِّر اليهود مما أدى إلى ظهور دياسبورا جديدة، وهذا ما لم

يتوقعه مؤسسوا الدولة الصهيونية. وقد جاء في صحيفة هاتسوفيه (في عددها الصادر في ٤ سبتمبر ٢٠٠٠) أن موجات النزوح خلال السبعينات والثمانينات مختلفة عن تلك التي حدثت خلال الخمسينات، فالنازحون خلال الخمسينات والستينات كانوا على اتصال بالجالية اليهودية وبإسرائيل، أما النازحون إبتداءً من السبعينات فهم لا يُلحقون أبناءهم بالمدارس اليهودية ولا يقيمون روابط بينهم وبين الجالية اليهودية وحسب، بل إنهم يبتعدون عن هذه الجاليات ويحاولون إنكار أنهم يهود. وتصل معدلات الاندماج للنازحين في جاليات معينة حاليًا إلى حوالى ٧٠٪ - ٨٠٪!

وتفاقم ظاهرة النزوح يقوض من شرعية الحركة الصهيونية ويكشف زيف الادعاءات الصهيونية بخصوص ارتباط اليهود ارتباطًا عضويًا بأرض الميعاد. ولكن الأهم من هذا أن النزوح يُعدُّ ضربة في الصميم لمقدرات المشروع الصهيوني الاستيطانية/ العسكرية. فإذا كان اليهودي المهاجر من بلده إلى فلسطين المحتلة يحول إلى مستوطن صهيوني مقاتل، فإن الحركة العسكرية (النزوح) تؤدي إلى تحول المستوطن الصهيوني المقاتل إلى مواطن يهودي في بلد آخر، وبخاصة مع وجود نسبة كبيرة من النازحين من بين أعضاء الكيبوتسات وكبار الضباط والطيارين والمهندسين في صناعة السلاح.

وقد جاء في صحيفة يديعوت أحرونوت (في عددها الصادر في ٧ مايو ٢٠٠١) أن الإسرائيليين قد بدءوا يهرولون باتجاه أمريكا مرةً ثانية، ولكنهم في هذه المرة أكثر من ذي قبل. فقد شرع قسم الهجرة التابع لحكومة الولايات المتحدة قبل ستة أسابيع، أي في منتصف شهر مارس ٢٠٠١ - شرع في حملة السحب السنوية على «الجرين كارد» تلك التأشيرة التي تسمح لصاحبها بالإقامة والعمل في الولايات المتحدة بصورة شرعية. ومن المقرر أن تنتهي هذه الحملة في شهر أكتوبر القادم. أما في صيف

عام ٢٠٠٢ فسيُعلن الأمريكيون أسماء الـ ٥٥ ألف السعداء الذين فازوا في عملية السحب. وتقول الصحيفة: «إذا كان تهافت الإسرائيليين على استمارات المشاركة في السحب يمكنه أن يشير إلى شيء ما بخصوص الحالة المعنوية القومية لنا فإنها تُنذر بأن هذه الحالة سيئة للغاية، حيث يحاول كثير من الإسرائيليين بأعداد تزيد عما كان عليه في العام الماضي - يحاولون تجربة حظهم في عملية السحب. وقد صرح مسئول في أحد المكاتب الكبرى المعنية بهذا الموضوع في «أتلانتا» بأن عدد الإسرائيليين الذين قدموا - عن طريق المكتب - طلبات الاشتراك في عملية السحب حتى الآن للحصول على «الجرين كارد» أكبر عشرات المرات من عدد الذين سجلوا أسماءهم في عملية السحب خلال نفس الفترة من العام الماضي.

ويعيش ويعمل في الولايات المتحدة عشرات الآلاف من الإسرائيليين بصورة «غير شرعية». فقد وصلوا إليها كسيُاح ثم اختفوا بصورة عامة في التجمعات الحضرية الكبرى وسط الـ ٢٨٠ مليون نسمة الذين يمثلون سكن الولايات المتحدة. وهم يعيشون هناك بدون رعاية اجتماعية وبدون تأمين وطني وبدون تأمين صحي. وقد تم مؤخرًا طرد المئات من هؤلاء الإسرائيليين وإبعادهم إلى إسرائيل خلال حملات مداهمة ضخمة شنتها سلطان الهجرة الأمريكية.

وقد لوحظ أن المتقدمين للحصول على الجرين كارد هذا العام جاءوا من كل الأوساط ومن أعمار متنوعة كثيرة. فبالإضافة إلى الجنود والطلبة انضم إليهم أرباب أسر. وكان القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو نفورهم من الأوضاع في إسرائيل والرغبة في مغادرة إسرائيل لأجل غير مسمى. بسبب الإحباط بدءًا بالوضع السياسي وانتهاءً بالوضع الاقتصادي. ولكن الوضع الأمني، أي المقاومة والانتفاضة الفلسطينية، كانت هي العنصر الأساسي.

وكما قال أحد طالبي الجرين كارد: «أنا أب لثلاثة أطفال وأقيم في حيدراه، أطفالي لا يزالون صغارًا وأريد أن يكون أمامهم مستقبل آمن». وإسرائيل بعد الانتفاضة لم تعد توفر الأمن للمواطن المستوطن. وعلى حد قول جريدة يديعوت أحرونوت يبدو أن الانتفاضة قد دفعت الكثيرين أن يحملوا بالحياة في مكان آخر، أكثر هدوءًا وراحةً وأمنًا، أى أمريكا!

وهناك شكل آخر من أشكال النزوح الداخلي، إن صح التعبير، وهو نزوح سكان المستوطنات في الضفة الغربية إلى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ (فيما يسمى الخط الأخضر). والمستوطنات الصهيونية التي كانت تشكو من قلة المستوطنين (حتى إن بعضها كان يسمى «مستوطنات الأشباح» [بالإنجليزية: دمي ستلمنت dummy settlements] أصبح أكثر إقفارًا بعد نزوح المستوطنين المستعمرين عنها. ولكن هذا موضوع لمقال آخر.

□□□

الانتفاضة وعقلية الحصار

ثمة انشغال مرضي للصهاينة بقضايا الأمن إلى درجة أن عبارتي «الهاجس الأمني» و «عقلية الحصار» قد أحرزتا شيوعًا غير عادى في الأدبيات التي تصف العقل الصهيوني. وقد صنفنا هذا الانشغال بأنه «مرضي» لأنه لا يتناسب بأية حال مع عناصر التهديد الموضوعية (فالشعب الفلسطيني شعب موضوع تحت حكم عسكرى قاس، وموازين القوى العسكرية بين الدول الصهيونية والدول العربية في صالح إسرائيل. كما أن أكبر قوة عسكرية في العالم، الولايات المتحدة، تقف بكل صرامة وراء الدولة الصهيونية).

ويذهب بعض الدارسين إلى تجربة الإبادة النازية قد تركت أثرًا عميقًا فيما يسمى الوجدان اليهودى والإسرائيلي بحيث تجذر الخوف من الإبادة

وأصبح شيئًا يشبه العقدة التاريخية أو العقد النفسية الجماعية. وتجربة الإبادة قد تفسر حدة الهاجس الأمنى وعقلية الحصار، ولكنها لا تفسر سبب وجودهما وتجذرهما، إذ إنهما - فى تصورى - ثمرة إدراك عميق وواقعى (واعٍ أو غير واعٍ) من جانب المستوطنين الصهاينة لواقعهم، فهم يعرفون تمام المعرفة أن الأرض التى ادعوا أنها بلا شعب، ذاخرة بالسكان، وأنهم ليسوا مجرد أشياء مصمتة وإنما شعب له تاريخ وتراث ومقدرة على المقاومة والمطالبة بحقوقه. وقد عمقت الانتفاضاتان: انتفاضة ٨٧ وانتفاضة الأقصى والاستقلال، من الهاجس الأمنى، إذ إنهما يذكران الصهاينة بأن دولتهم كيان مشتول، فُرض فرضًا على الفلسطينيين بقوة السلاح، وما أُسّس بالسيف يمكن أن يسقط به.

وثمة تجربة استيطانية أخرى فى شرق أوربا، مماثلة لتجربة الاستيطان الصهيونى، ولدت فى وجدان الجماعة اليهودية الهاجس الأمنى وعقلية الحصار. ولفهم هذه التجربة لابد أن نعرِّف مصطلحين بولنديين أعتقد أنهما أهم كلمتين لفهم تاريخ يهود بولندا الاقتصادى (ويهود بولندا هم أصل الأغلبية الساحقة ليهود العالم الغربى بأسره، بما فى ذلك الولايات المتحدة). والكلمتان هما: «الشلاختا» و «الأرنداتور». والشلاختا هى طبقة النبلاء البولنديين الذين كان محرمًا عليهم العمل بالتجارة. أما الأرنداتور فهو الوكيل المالى. وفى عام ١٥٦٩ وقع تحت تصرف النبلاء البولنديين مساحات ضخمة من الأراضى فى أوكرانيا كانت فى حاجة إلى رأس مال ضخم لاستثماره لإدارتها ولمد الطرق اللازمة لذلك. وكان لدى الجماعة اليهودية كل ما يلزم عملية الاستثمار فى ضِياع النبلاء، كما أنهم لم يكن عندهم أى موانع للقيام بأعمال الإدارة والوساطة المالية والاستيطان فى مناطق نائية. لكل هذا تشكلت علاقة تعاقدية نفعية بين الشلاختا من جهة واليهود كجماعة وظيفية مالية استيطانية من جهة أخرى. فكان أعضاء

الشلاختا يقيمون في وارسو، وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقيمون في ضياعهم في أوكرانيا يديرونها لحساب النبلاء. فيقومون بتحصيل الضرائب الباهظة من الفلاحين، ومنها ضريبة يدفعها الفلاحون الأوكرانيون لفتح باب الكنيسة لأداء الصلاة أو غيرها من العبادات وضريبة أخرى على الرداء الكهنوتي الذي يرتديه الكاهن المسيحي للقيام بطقوس الصلاة. كما كانوا يقومون ببيع السلع التي كان يحتكرها النبلاء، مثل الملح والخمور، بأسعار مرتفعة جدًا. وقد ولد هذا حالة من الصراع الشديد. ومما زاد من حدة الصراع وأوضح معالمه عنصران أساسيان:

١ - يتسم نظام الأرندا بأنه إقطاع استيطاني، مختلف عن أشكال الإقطاع السائدة في أوربا آنذاك. فالإقطاع التقليدي يفترض وجود ثقافة مشتركة بين النبيل وفلاحيه، كما يفترض أن النبيل عادةً ما يوجد في ضيعته يديرها بنفسه ويدخل في علاقة مباشرة معهم. أما في حالة النبيل الإقطاعي البولندي، فهذه الشروط لم تكن متوفرة البتة، فهو كان دائمًا غائبًا عن ضيعته، ولم تكن لها أية علاقة مباشرة معها أو مع فلاحيها، وكان يمثله عنصر بشرى استيطاني غريب يمثل همزة الوصل بينه وبين فلاحيه. وكان اهتمامه بضيعته اهتمامًا ماليًا (تجاريًا) ضيقاً، حيث كانت تمثل مصدرًا للدخل وحسب (وليست مظهرًا من مظاهر الأبهة الإقطاعية والمكانة الأرستقراطية والحسب والنسب) فهو لا يتحدث لغتهم الأوكرانية ولا ينتمي إلى كنيستهم الأرثوذكسية. وأدّى هذا إلى تزايُد استغلال النبلاء للفلاحين في أوكرانيا وفي خارجها، وإلى تحوُّل نظام الأقنان إلى نظام عبودى إذ لم تكن تُوجَد قوة تقف في وجه النبلاء وتضع حدودًا لاستغلالهم. وقد أصر النبلاء على حقهم المطلق في إقرار الحياة والموت بالنسبة إلى الأقنان.

٢ - يوجد تعارض اجتماعي وديني وعرْقي كامل بين الجماهير الأوكرانية من جهة، والنبلاء البولنديين ووكلائهم من جهة أخرى. فهذه الجماهير كانت أساسًا جماهير فلاحية تتحدث الأوكرانية وتنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية وتعمل بالزراعة. والمستغِل الحقيقي كان النبيل الإقطاعي البولندي الذي يتحدث البولندية ويتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وينتمي للطبقة الإقطاعية، ولم يكن الوكيل اليهودي سوى أداته في الاستغلال وسوط عذابه. ولكنه مع هذا كان المستغل المباشر المنعزل تمامًا عن الجماهير، وكان يتحدث اليديشية ويدين باليهودية ويشتغل بالأمور المالية.

ورغم أن يهود الأرندا لم يكونوا يقومون بأية مهام قتالية، فوظيفتهم كانت مالية، إلا أنهم نظرًا لكره الجماهير لهم كان عليهم أن يتدربوا على حمل السلاح. وقد نص القانون البولندي على أنه يجب على كل رب عائلة يهودية أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور في بيته وبثلاثة خراطيش وثلاثة أرطال من البارود. كما قام النبلاء الإقطاعيون بتشييد العديد من المدن الصغيرة لأعضاء الجماعة اليهودية يعيش فيها الملتزمون اليهود وأسرهم وأتباعهم في حماية القوة العسكرية البولندية.

وقد تم عسكرة هذا المجتمع اليهودي الصغير، ويظهر هذا فيما يسمى المعبد/ القلعة الذي كان يصمم بطرق تجعل بالإمكان استخدامه كمكان للعبادة والدراسة وكحصن وقلعة عسكرية، فكان يزود بحوائط سمكية، كما أن المتاريس (حاجز السقف أو الشرفة) كانت مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق. وكان على اليهود أن يقوموا بتزويد معابدهم بكوات من الجهات الأربعة وبالسلاح الكافي على نفقتهم. كما يجب أن يكون المعبد/ القلعة مزودًا بعدد من الرجال يكفي لصد الهجمات عليه، وكانت

المعابد/ القلاع تزود عادةً ببرج مراقبة ضخم (كان يستخدم فـي زمن السلم كسجن يودع فيه المجرمون من أعضاء الجماعة اليهودية).

ولكن رغم كل هذا التخندق، قامت انتفاضة بوجدان شيملنكي باكتساح الجماعات اليهودية، وقد اندلعت الانتفاضة عـام ١٦٤٩، وعبَّر الفلاحون عن غضبهم بذبح كل من وجدوه في طريقهم ممثلاً لمؤسسة القمع: نبلاء بولنديين وقساوسة كاثوليك ووكلاء يهود. ولعل عملية الانتقام كانت أكثر سهولة ويسرًا في حالة انتفاضة شميلنكي لأن العنصر المستغل (البولندي الكاثوليكي واليهودي اليديشي) كان عنصرًا استيطانيًا غريبًا من السهل التعرف عليه يعيش في الشتتلات. ومما يجدر ذكره أن انتفاضة شميلنكي لم تكن انتفاضة عنصرية موجهة ضد اليهود باعتبارهم ممثلين للإقطاع البولندي الاستيطاني، أي إنهم لم تكن لهم أية أهمية في حد ذاتهم، فقد كانوا مجرد أداة في يد أحد أطراف الصراع. ولذا فحينما كانت القوات البولندية تنتصر على المنتفضين كان هذا يعني عادةً عودة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الشتتلات وكان يُنص على هذا في الاتفاقيات المبرمة. وحينما كانت كفة المنتفضين ترجح كان أحد مطالبهم أن تُخلَى المدن الأوكرانية من القوات البولندية والوكلاء اليهود. وحينما كتب شميلنكي رسالة إلى كرومويل، على أمل عقد تحالف بين القوتين الأرثوذكسية والبروتستانتية، فإنه لم يذكر اليهود بخير أو بشر.

فاليهود لم يكونوا سوى مادة استيطانية مالية شبه قتالية، وقد تحوَّلوا إلى مجرد أداة في يد الشلاختا. ولذا فحينما حقق شميلنكي انتصارًا على البولنديين عام ١٦٤٩، نصت المعاهدة المبرمة بين الطرفين على عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانيا إذ إن وجودهم فيها كان علامة على الهيمنة البولندية فهم أداته الطيعة. ولكن حينما ألحقت القوات البولندية الهزيمة بقوات شميلنكي عام ١٦٥١، اضطر إلى الاعتراف

بحق اليهود في الاستيطان في ضياع الملك والشلاختا. ولذا، فقد يكون من الأفضل أن نسمي يهود الأرندا «المماليك التجارية الاستيطانية شبه القتالية».

وانتفاضة شميلنكي لا تختلف كثيرًا عن انتفاضات الفلسطينيين المتكررة. فهي ليست انتفاضة ضد اليهود، وإنما انتفاضة ضد الظلم ومؤسسة القمع، وإذا كان الصهاينة هم أداة القمع، فإن مؤسسة القمع الكبرى هي الولايات المتحدة التي تدعم الآلة وتضمن لها البقاء والاستمرار والحياة.

ونقاط التشابه بين المعبد/ القلعة والدولة الصهيونية تستحق التأمل، فالتراتب الطبقي والحضاري الثلاثي (شلاختا بولنديون كاثوليك يتحدثون البولندية - أرنداتور يهود يتحدثون اليديشية - فلاحون أوكرانيون أرثوذكس يتحدثون الأوكرانية) يقابله تراتب ثلاثي مماثل في فلسطين (شلاختا أمريكية علمانية تتحدث الإنجليزية - أرنداتور يهود يتحدثون العبرية - فلاحون عرب مسلمون ومسيحيون يتحدثون العربية). والعنصر الوسيط في كلتا الحالتين عنصر مالي/ عسكري يعتمد على قوة عظمى خارجية (بولندا أو أمريكا). وفي كلتا الحالتين شكلت الانتفاضة التحدى الأكبرى الذى قضى على الجيب الاستيطاني في بولندا والذى هز الجيب الاستيطاني من جذوره في فلسطين، وسيقضي عليه في النهاية بإذن الله.

□□□

الضربة القاضية

من أحسن المقالات التي كُتبت عن الانتفاضة مقال الكاتب الإسرائيلي يورى أفنيرى (الذى نشرته جريدة الأهرام ويكلي في عددها الصادر ١٩ من أبريل ٢٠٠١). وعنوان المقال «الضربة القاضية لم تُسدَّد بعد». ويورى أفنيرى عضو سابق في الكنيست، وقد أدرك - من أوائل المستوطنين الذين

أدركوا - أن المشروع الصهيوني لا يمكن تحقيقه، ولذا كان من أول مؤلفاته كتاب إسرائيل بدون صهيونية. ومهما كان رأينا في أفنيرى، فإن التحليل الذى يقدمه للمواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين من أحسن ما قرأت. يقول أفنيرى في مقاله:

يدخل ملاكمان الحلقة: واحد منهما بطل الوزن الثقيل، والآخر وزن الريشة. ويتوقع الجميع أن يقوم البطل بتسديد ضربة قاضية تقضى على غريمه الهزيل في الجولة الأولى.

ولكن وبأعجوبة تنتهى الجولة الأولى، والضربة القاضية لم تُسدَّد بعد، ثم الجولة الثانية، ويستمر نفس الوضع. وبعد الجولتين الثالثة والرابعة لايزال خفيف الريشة واقفا، مما يعنى أنه هو الرابح الحقيقى، لا بالضربة القاضية ولا بالنقط، وإنما لمجرد أنه لا يزال واقفاً ومستمرًا في الصراع مع غريمه القوى.

هذه الصورة المجازية تنطبق تمام الانطباق على المواجهة بين قوى الاحتلال الإسرائيلي والشعب الفلسطيني. فالجيش الإسرائيلى القوى لم ينجح حتى الآن في تحطيم العمود الفقرى للانتفاضة. لقد جرَّب هذا الجيش كل شيء: البنادق والطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة والتصفية الجسدية وتحطيم أحياء بأسرها والحصار وتحطيم المنازل وقطع الأشجار، ومع هذا لا يزال الفلسطينيون واقفين يصارعون غريمهم.

وتتمتع حكومة شارون/ بيريس، في صراعها مع الفلسطينيين، بدعم الولايات المتحدة الكامل، فهى تزوِّد إسرائيل بالأسلحة والمال وتمارس حق الفيتو لصالحها في مجلس الأمن (وكما قال دبلوماسى أوربى إن إسرائيل من الناحية الفعلية هى العضو السادس الدائم في مجلس الأمن، الذى

يتمتع بحق الفيتو). وتكتفى أوربا بالتـأييد اللفظـى للفلسـطينيين ولا تفعـل أكثر من هذا. والنظم العربية تكتفى هى الأخرى بمنح الفلسطينيين كلمـات طيبـة.. وفـى إسـرائيل ذاتـها جنِّـدت وسـائل الإعـلام فـى خدمـة الحكومة، ولا توجد معارضة حقيقة في الكنيست، ولا توجد أية حركـات احتجـاج، باستثناء بعـض قـوى السـلام الراديكاليـة، التـى تقاطعـها وسائل الإعلام.

إذا كان هذا هو الوضع، فهل يمكن القول إن الفلسطينيين عاجزون تمامًا أمام التفوق الساحق لحكومة شارون/ بيريس؟ وهل أصابهم اليـأس والوهـن؟ الإجابة ستكون بالنفى، إذ إن آمالهم ترتكز على ما يلى:

أولاً: الانتفاضة نفسها. إن إرادة الشعب الفلسطينى لم يتم كسـرها رغـم كل الضربات القاسية التى سُدِّدت إليهم، وقد سبَّب هذا دهشة الجـنرالات والمعلقين الإسرائيليين. لقد حُطِّم اقتصاد الفلسـطينيين، وأصبحـت حياتـهم جحيمًا، ومع هذا يؤيد الجمهور الفلسطينى الاستمرار فى الكفاح.

وقد وصف أحدهم الصراع الإسرائيلى الفلسطينى بأنـه «صـدام بـين قـوة لا يمكن مقاومتها، وشىء لا يمكن تحريكه». لقد أصبحت الانتفاضة حـرب استنزاف. فى مثل هذه الحرب بين قوة الاحتلال والمحتلين، نجد أن روح المحتلين المعنوية عالية لأنهم يدافعون عن وجودهم ذاته «وفـى الحـرب»، كما يقول نابليون، «تشكِّل الاعتبارات المعنويـة ثلاثـة الأربـاع، أمـا تـوازن القوى فيشكِّل الرابع الباقى».

وإسرائيل تدفع ثمنًا باهظًا على هيئة خسائر مادية، أو على هيئة الدمار الذى يلحق بمقـدرة الجيـش علـى القتـال (وهـو ثمـن لا يجـرؤ أحـد علـى حسابه). ولا يعرف أحد متى سيلحق التعـب بـإرادة الشـعب الإسـرائيلى

ومقدرته على الاستمرار فى هذا الصراع الذى لا طائل من ورائه. ويبدو أن هذا قد يحدث قبل أن يرفع الفلسطينيون أيديهم علامة على الاستسلام.

ثانيًا: الجماهير العربية. من الواضح أن النظم العربية ليست على استعداد أن ترفع إصبعًا واحدًا دفاعًا عن الفلسطينيين، وهى غير قادرة كذلك على إغضاب الأمريكيين، ولكن موقف المثقفين والجماهير مختلف تمام الاختلاف، فتعاطفهم مع الفلسطينيين كبير إلى أقصى حد.

هذا الوضع لا يسبِّب الضيق لهذه النظم الآن. ولكن إن حدث شىء يسبِّب غضب الجماهير إلى درجة أنه قد يعرِّض استقرار هذه النظم للخطر، فإن الموقف سيتغيَّر تمامًا فجأة. وتوجد جماعات قومية وإسلامية معارضة فى البلاد العربية تنتظر اغتنام مثل هذه الفرصة. فلو ارتكبت إسرائيل إحدى فظائعها مثل مذبحة قانا (حتى ولو عن طريق الخطأ) أو قامت بشىء ما فى الحرم الشريف يسبِّب غضب الجماهير العربية، فإن الموقف سيتفجَّر. ومن المعروف أن إحدى المظاهرات فى المغرب اشترك فيها مليون شخص، وأن مظاهرة قامت فى السعودية لأول مرة (قامت بها النساء)، وقامت مظاهرة غاضبة فى عُمان. ويبدو أن الجميع ينتظر شارون أن يرتكب إحدى أعمال البطش ليتفجَّر الموقف لتصل ألسنة النيران إلى عنان السماء.

ثالثًا: ثمة حدود حتى للدعم الأمريكى الكامل لشارون وبيريس. وقد تكون إدارة بوش هى أسوأ الإدارات من وجهة نظر فلسطينية. ولكن توجد خطوط حمراء: البترول. لو حدث انفجار فى العالم العربى، وقامت النظم العربية برسالة إلى أمريكا تطلب منها فيها أن تنقذها [من الجماهير الغاضبة] فقد تهبط اليد الأمريكية الحديدية على شارون وشركائه.

وفى كل هذا الوقت، فى الأسبوع التاسع والعشرين من الصراع فى حلبة الملاكمة، لم يستطع بطل الوزن الثقيل أن يهوى بالضربة القاضية على خفيف الريشة.

انتهى كلام أفنيرى، وانتهى تقييمه الدقيق للوضع فى فلسطين.

□□□

الإجماع الصهيونى

اغتصب المستوطنون الصهاينة أرض فلسطين وطردوا معظم سكانها وأسسوا دولتهم الصهيونية، وهى دولة تستند إلى ما نسميه «الإجماع الصهيونى». و «الإجماع» فى عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية. و «الإجماع الصهيونى» هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين «التيارات والاتجاهات والأحزاب» الصهيونية التى تضم الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين ومع يهود العالم ودول العالم، وبخاصة دول العالم الغربى وفى مقدمتها الولايات المتحدة التى ترعى الكيان الصهيونى. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، ولكنها لا تنصرف قط إلى المسلمات النهائية. والعقد الاجتماعى الذى يستند إليه التجمُّع الصهيونى هو نفسه هذا الإجماع، وهو الذى كان يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية.

والإجماع الصهيونى يصدر عن جملة واحدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». هذه الجملة البسيطة العنصرية الإبادية يتم تطويرها على شكل بناء أيديولوجى ومصطلحى متماسك، مع إضافة الديباجات اليهودية التى أضفت بُعدًا تاريخيًا وجماليًا على الرؤية العنصرية الإبادية حتى تبدو كما لو كانت أمرًا إنسانيًا رائعًا. ويمكن تلخيص بنود الإجماع الصهيونى فيما يلى:

١ - اليهود شعب واحد، طليعته هم المستوطنون الصهاينة، وفلسطين هى أرض الميعاد أو إرتس يسرائيل (وطن اليهود القومى) وليست فلسطين،

وطن أهلها، وعلى يهود العالم أن يهاجروا إلى إرتس يسرائيل وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية ويقوموا بدعمها ماليًا وسياسيًا فهي المركز وهم الهامش، هذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة (دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد) تجسِّد الرؤى اليهودية وبإمكان اليهودى أن يحقق فيها ذاته وهويته.

٢ - وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين - حسب التصوُّر الصهيوني- أمر عرضي زائل، ومن ثم لابد من التخلص منهم إما بالطرق السلمية أو الإرهابية. وانطلاقًا من كل هذا يصبح من «حق» الدولة الصهيونية أن «تدافع» عن نفسها وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال «جيش الدفاع الإسرائيلى» ضد «إرهاب» السكان الأصليين، أى الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية. وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يسارى، ولكن في التحليل الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون جوهرى واحد. فالتيار العمالى يتبنَّى مقولة بن جوريون إن «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة». أما التيار التصحيحى فيتبنَّى نظرية فلاديمير جابوتنسكى بشأن «الجدار الحديدى» وهى النظرة التى طوَّرها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذى»، وأكدها نتنياهو «وقد وافق باراك على هذا بطريقة ملتوية مراوغة» في كتابه مكان تحت الشمس في مفهومه عن «سلام الردع». وقد تبدَّى هذا فى كل الترتيبات العسكرية الصهيونية ابتداءً من أصغر الأسلحة شأنًا حتى الردع النووى.

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية باعتبارها «قضية أخلاقية» وحسب، ومن ثم يجب عدم الحديث عن «عودة» الفلسطينيين إلى ديارهم («إعادة توطينهم» فى المصطلح العربى)، وإنما يجب الحديث عن «منح تعويضات» مالية للمتضررين منهم (وهذا استمرار للعقلية التجارية القومية

الصهيونية، التى ترى أن كل شيء يُباع ويُشترى بما فى ذلك الأوطان). أما المتبقون فيُستوعبون فى أماكن وجودهم (أى فى البلدان العربية المختلفة، وبخاصة سوريا ولبنان).

٣ - سياسة الأمر الواقع هى السياسة الوحيدة التى يمكن اتباعها مع العرب، فالأمر الواقع هو الذى يغيِّر الواقع [العربى] ويفرض واقعًا [صهيونيًا] جديدًا عليه ويمكن تحقيق السلام وبالشروط الصهيونية من خلاله.

٤ - لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل، فتفكيك المستوطنات يضرب فى صميم الشرعية الصهيونية، ولابد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر. ولكن، هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة، بطرق برية أم أنفاق تحت الأرض، أم تظل منفصلة؟ وهل هى مستوطنات مؤقتة (أمنية) أم دائمة (عضوية، إن صح التعبير)؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود.

٥ - القدس هى العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية (وليست موضوعًا للمساومة) وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكانًا خارج القدس وليسموه ما يشاءون، الـ Quds على سبيل المثال، وهذه (مع الأسف) ليست مجرد نكتة سياسية وإنما حقيقة صهيونية.

٦ - الدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية، وحدودها هى نهر الأردن، ويختلف العماليون فيما بينهم، كما يختلفون مع أعضاء الليكود، عما إذا كان الوجود الإسرائيلى على نهر الأردن مستمرًا (عضويا دائما) أم مؤقتا (أمنيا) إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هى نهر الأردن بالفعل وأن الوجود الإسرائيلى هناك وجود دائم، أما العماليون فهم مستعدون «للخروج» من هذه الأرض من الناحية النظرية على الأقل .

٧ - الكيان الفلسطينى الذى سينشأ بعد ذلك (فى الضفة والقطاع) كيان سياسى منقوص السيادة، منزوع السلاح وبدون جيش، ويشبه هذا الكيان ببورتوريكو وأندورا (والأولى دولة حرة، تابعة للولايات المتحدة، لسكانها حق التصويت، دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية، أما الثانية، فتخضع لنظام حكم تحت سيادة فرنسا وأسقف من إسبانيا [فهى تقع بين البلدين]). أما ماذا تُسمَّى هذه الدولة (هل هى «حكم ذاتى» أم «دولة فلسطينية مستقلة»؟) فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

٨ - تنازل معظم الصهاينة عن الشعارات القديمة مثل إسرائيل الكبرى «حدوديًا» (أى إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات)، وبدءوا فى تبنى شعارات مثل «إسرائيل العظمى اقتصاديًا» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج، فهذا هو عصر النظام العالمى الجديد وما بعد الحداثة، وقد أثبت الصهاينة مقدرة غير عادية على التكيف مع المعطيات الدولية، وهذه سمة أساسية للدولة الوظيفية.

٩ - يذهب الإجماع الصهيونى - رغم كل ديباجات الاستقلال الصهيونى والاعتماد على الذات ورفض الأغيار - إلى أنه دون الدعم الغربى، وبخاصة الأمريكى، للمستوطن الصهيونى لن يُقدَّر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطن الصهيونى هو أساسًا دولة وظيفية أسست للاضطلاع بوظيفة أساسية، هى الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيونى وضمن له البقاء والاستمرار كى يدافع عن مصالح الغرب فى المنطقة، ودون أداء هذه الدولة لوظيفتها، لن يكون هناك دعمٌ.

وقد اهتزت بنود هذا الإجماع الواحد تلو الآخر، فمسألة أن اليهود شعب واحد ثبت كذبها. فأعضاء هذا الشعب سعداء فى «منفاهم» ولم يهرعوا إلى أرض الميعاد. كما أن الفشل الصهيونى/ الإسرائيلى فى تعريف اليهودى مشكلة أساسية تقوض الإجماع الصهيونى وتهدده.

أما بخصوص الفلسطينيين فقد أدرك الصهاينة صعوبة التخلص منهم ومن وجودهم «العرضى الزائل». ولذا يحاول الصهاينة الآن قبول الأمر السكانى الواقع مع الاتجاه نحو تقليل الاحتكاك بالفلسطينيين ومحاصرتهم عبر إقامة كيان خاص بهم، لأنهم يهددون شرعية الوجود الصهيونى ذاته. ولكن الحديث عن «محاصرة السكان» هو نفسه دليل على الفشل الصهيونى فى إنشاء الدولة الصهيونية الخالصة، وفى حماية المزاعم الصهيونية التى تحدتها انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى. وقد تحوَّل النظام الاستيطانى الصهيونى عن الإحلال وأصبح نظامًا مبنيًا على التفرقة العنصرية (الأبارتهايد).

وقد أثبتت انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى و «الحزام الأمنى» فى لبنان عدم جدوى الأمر الواقع وعبثيته واستحالة فرض السلام بالشروط الصهيونية. ولذا نجد أن الإجماع الصهيونى قد اهتز بشأن غزوات إسرائيل العسكرية (والتى تحاول من خلالها فرض الأمر الواقع والسلام بالشروط الصهيونية).

□□□

إجماع المستوطنين

تساقطت وتفككت كثير من بنود الإجماع الصهيونى حتى إن دارسى الكيان الصهيونى يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعُد هى الأيديولوجية التى تهدى المستوطنين فى سلوكهم ولم تعُد هى الإطار الذى يدركون العالم من خلاله. وهذا القول - فى تصورى - صحيح إلى حد كبير، ولعل أكبر دليل على هذا هو الفتور وعدم الاكتراث تجاه المؤتمرات الصهيونية. انظر على سبيل المثال ما حدث فى المؤتمر الصهيونى الثالث والثلاثين الذى عُقد فى القدس فى ديسمبر ١٩٩٧. وصل عيزرا وايزمان، رئيس الدولة، وبنيامين

نتنياهو، رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما. ولم تُعر الصحف الإسرائيلية المؤتمر اهتمامًا كبيرًا، ونشرت أخباره في مقابل صفحة الوفيات. وفي المؤتمر الثاني والثلاثين الذي عُقد في القدس في يوليو ١٩٩٢ أحس الجميع بأن «المولد الصهيوني» قد أوشك على الانفضاض، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت، «عظامًا جافة» و «هيكلاً بدون وظيفة» (ميزانية المنظمة ٤٩ مليون دولار مقابل ميزانية الوكالة الصهيونية التي بلغت ٤٥٠ مليون دولار). وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية: «هل مازالت هذه المؤسسة قائمة؟» وقد استُنفد معظم الوقت في تدبير التعيينات في المناصب والصراع على الوظائف رغم أنه كان قد وُوفق على معظمها قبل المؤتمر.

وقد أثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية - من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية - حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن المؤتمرات تحوّلت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، والتي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المُختلط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية مما يكرس عزلتها. ومن أبرز الدلائل على تلك الأزمة أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية لم تفلح حتى الآن في الاتفاق على حل لمشكلة من هو اليهودي ومن هو الصهيوني، رغم أنها تأتي دائمًا في مقدمة الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال في المؤتمرات المختلفة. ورغم أن البعض يحاول أن يُرجع هذا العجز إلى أسباب فنية وتنظيمية إلا أنه بات واضحًا أن مظاهر الأزمة ذات طبيعة تاريخية وحتمية تتجاوز الحدود التنظيمية

لتصل إلى جذور المشروع الصهيونى نفسه وإلى طابع نشأته وتطوره. ولهـذا، فليس من قبيل المبالغة أن يُضاف عجز المنظمة الصهيونية العالمية بهيئاتـها المختلفة، ومنها المؤتمر، إلى مجمل المظاهر العامة لأزمة الحركة الصهيونية.

ولعـل ظـهور مـا بعـد الصهيونيـة هـو تعبـير عـن مـدى عمـق أزمـة الأيديولوجية الصهيونية (كلمة «بعد» فى الخطاب الفلسفى الغربى تعنى أن النموذج المهيمن قد ضمر وذوى ولم يولد نموذج جديد يحـل محلـه، أى أن ثمة أزمة على مستوى النموذج لم يظـهر لهـا حـل بعـد، ولعـل الكلمـة تعنىأيضًا «نهاية». ومن أهم مصطلحات المابعد مصطلح «ما بعد الحداثـة» الذى صيغ مصطلح «ما بعد الصهيونية» قياسًا عليه).

ويصاحب ظاهرة ما بعد الصهيونية ظاهرة المؤرخـين الجـدد الذيـن جعلوا همـهم تقويـض الأسـاطير الصهيونيـة. ويمكـن أن نضـم لهـؤلاء المـؤرخ زئيـف هرتزوج الذى بيَّن أن كثيرًا من الأساطير التوراتية التى يستند إليها الصهاينـة ليس لها سند تاريخى. وقد طُرح عليه السؤال التالى: «إذا كان الأمـر كذلـك، فماذا تفعلون هنا فى شرقنا العربى؟» فأجاب: «نحن هنـا لأننـا هنـا». وهـى عبـارة بسـيطة لكنـها تخبـئ الوضـع الصـهيونى الحـالى وهـو أن الديباجـات اليهودية هى مجرد ديباجات وأن الجيـب الاسـتيطانى الصـهيونى قـائم فـى إطار الاستعمار الدراوينى الذى يغيِّر الواقـع عـن طريـق العنـف وقـوة السـلاح والدعـم الغربـى. وأن المستوطنين الصهاينـة لا يختلفـون عـن أى مسـتوطنين آخرين، سلبوا الأرض وحاولوا سحق السكان. وأن كل حديثهم عن السلام هو حديث عن سلام فى ضوء إجماع المستوطنين على البقاء بحد السلاح.

ولننظر الآن لمعزوفة السلام الإسرائيلية. تبدأ هذه المعزوفـة بالمنـاداة بـالبُعد عن عُقَد التاريخ وأن تتناسى كل دول المنطقة خلافاتها لمواجهـة الخطر الأكـبر (الاتحاد السوفيتى - الإسلام.. إلخ). وأن نقطة البدايـة لابـد أن تكـون الأمـر الواقع. وهذا المفهوم يفترض أن إسرائيل ليست التهديد الأكبر. مـع أن الأمـر

الواقع الذى يُطلَب منا أن نبدأ منه يقول عكس ذلك. فهو أمر واقع مؤسَّس على العنف ويؤدى إلى الظلم والقمع هو مصدر الصراع والحروب والاشتباك. فالمسألة ليست عُقَدًا آنية أو تاريخية، وإنما بنية الظلم التى تشكلت فى الواقع ولا يمكن تأسيس سلام حقيقى إلا إذا تم فكها.

بعد تناسى عقد التاريخ يطالب الصهاينة بوقف المقاومة واستسلام الفدائيين مقابل تسليم بعض المدن والقرى لا «تنسحب» منها القوات الإسرائيلية الغازية، وإنما «يُعاد نشرها»، وهذا ما يسمونه «الأرض فى مقابل السلام». والقوات الإسرائيلية لا تنسحب، لأن أرض فلسطين هى أرض الشعب اليهودى، والقوات الوطنية لا تنسحب من أرض الوطن وإنما يعاد نشرها وحسب. ولذا رغم اتخاذ هذه الخطوة الرمزية الإعلامية فإن الاستيطان سيستمر على قدم وساق والقدس ستظل عاصمة إسرائيل الأبدية.

إن كل هذه التصورات للسلام تنبع من إدراك أن أرض فلسطين هى إرتس يسرائيل، وأن الإسرائيليين لهم حقوق مطلقة فيها، أما الحقوق الفلسطينية فهى مسألة ثانوية، فالأرض فى الأصل أرض بلا شعب. وتتبدَّى هذه الخاصية بشكل واضح ومتبلور فى المفهوم الإسرائيلى للحكم الذاتى.

وتصوُّر إسرائيل لمستقبل المنطقة لا يختلف كثيرًا عن ذلك، فالمركز هو إسرائيل وهى التى تمسك بكل الخيوط، أما بقية «المنطقة» فهى مساحات وأسواق. وإسقاط عُقَد التاريخ هنا يعنى إسقاط الهوية التاريخية والثقافية بحيث يحول العرب إلى كائنات اقتصادية، تحركها الدوافع الاقتصادية التى ليس لها هوية أو خصوصية. هنا تظهر سنغافورة كصورة أساسية للمنطقة وكمثل أعلى: بلد ليس له هوية واضحة ولا تاريخ واضح، نشاطه الأساسى هو نشاط اقتصادى محض. وحينما يتحول العالم العربى إلى سنغافورات مفتتة متصارعة فإن الإستراتيجية الاستعمارية والصهيونية للسلام تكون قد تحققت دون مواجهة ومن خلال «التفاوض» المستمر.



الفصل السادس

الهيكل

ما هو الهيكل

كثر الحديث عن الهيكل: هيكل داود - هيكل سليمان - هيكل هيرود - الهيكل الثالث - بناء الهيكل - نهب الهيكل. مما يتطلب توضيحًا للمسألة.

«الهيكل» كلمة كنعانية يقابلها في العبرية «بيت همقداش»، أى «بيت المقدس» أو «هيخال»، وهى كلمة تعنى «البيت الكبير» فى كثير من اللغات السامية (الأكادية والكنعانية وغيرهما). والبيت الكبير أو العظيم هو الطريقة التى كان يُشار بها إلى مسكن الإله، فكلمة «فرعون» تعنى «البيت الكبير» وهى تشبه إلى حد ما عبارة «الباب العالى»؟

ومن أهم أسماء الهيكل «بيت يهوه»، لأنه أساسًا مسكن للإله وليس مكانًا للعبادة (على عكس الكعبة مثلا). ومن هنا، ورغم أنه كان مصرَّحًا للكهنة بل ولعبيد الهيكل بالدخول فيه، فلم يكن يُسمَح لهم بالتحرك فيه بحرية كاملة. ولم يكن يُسمَح لأحد على الإطلاق بدخول قدس الأقداس إلا الكاهن الأعظم فى يوم الغفران.

ومن المعروف أن العقيدة اليهودية لم تتبلور إلا فى مرحلة متأخرة (ربما فى القرن الخامس الميلادى). ولذا فنحن نرى أن الهيكل ليس جزءًا من العقيدة اليهودية، وإنما هو جزء مما أسميه «العبادة القربانية المركزية»، وهى النمط الدينى الذى ساد فى فلسطين ابتداءً من حكم سليمان التوراتى (وهو حسب العقيدة اليهودية ليس نبيًا وإنما ملكًا) واستمرت بعض الوقت إلى أن هدم الرومان الهيكل فى عام ٧٠ ميلادية، لم يحل محله مبنى مركزى مماثل.

ويشغل الهيكل مكانة خاصة فى الوجدان اليهودى، فكان التصور أنه يقع فى مركز العالم فقد بُنىَ فى وسط القدس التى تقع فى وسط الدنيا (فقدس الأقداس الذى يقع فى وسط الهيكل هو بمثابة سُرَّة العالم، ويُوجَد أمامه حجر الأساس: النقطة التى عندها خلق الإله العالم). والهيكل كنز الإله مثل جماعة يسرائيل،وهو عنده أثمن من السماوات بل ومن الأرض التى خلقها بيد واحدة بينما خلق الهيكل بيديه كلتيهما. بل إن الإله قرَّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه، فكأن الهيكل مثل اللوجوس (أو الكلمة المقدَّسة)، أو ابن الإله فى اللاهوت المسيحى.

ويبدو أن الحاخامات اليهود قد أخضعوا الهيكل، منذ البداية، لكثير من التأملات الكونية. ويذهب أحد العلماء إلى أن هذه التأملات هى وحدها التى تفسر معمار الهيكل وتصميمه. وقد أورد يوسيفوس بعض هذه التأملات، فذكر أن الفناء الذى يحيط بالهيكل بمنزلة البحر، والمقدَّس هو الأرض، وقدس الأقداس هو السماء، والرقم (١٢)، وهو تعداد كثير من الأشياء الشعائرية، هو شهور السنة. بل إن رداء الكاهن الأعظم كان له أيضًا المغزى الكونى نفسه.

ويشير التراث اليهودى إلى ثلاثة هياكل: أما الهيكل الأول فهو هيكل سليمان، وحسب التصور اليهودى، قام سليمان ببناء الهيكل فوق جبل موريا، وهو جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التى يُوجَد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ويُشار إلى هذا الجبل فى الكتابات الإنجليزية باسم «جبل الهيكل» أو «تمبل ماونت Mount Temple»، وهو بالعبرية «هر هبايت»، أى «جبل البيت» (بيت الإله).

ومن الصعب الوصول إلى وصف دقيق لهيكل سليمان، فالمصدران الأساسيان لمثل هذا الوصف هما كتاب الملوك الأول (٦/٨)، والأخبار الثانى

(٤/٢) فى العهد القديم، وهما مختلفان فى عديد من التفاصيل المهمة. كما أن المصادر الأخرى تعطى تفاصيل تناقض أحيانًا تلك التى وردت فى هذين المصدرين الأساسيين.

وهيكل سليمان هو جزء من مُركَّب معمارى ملكى يضم قصر الملك ومبانى أخرى، مثل: بناء للصناع، وقاعة للاجتماعات، وبهو للعرش، وبهو للمحكمة العليا، وبناء كبير للحريم، وبيت لابنة فرعون زوجة سليمان. وكان هذا المركب المعمارى ملحقًا به المذبح الصغير الذى يضم تابوت العهد. وكان يحيط بكل هذه المبانى فناء واسع. وكان مثل هذه المركبات المعمارية أمرًا شائعًا فى الشرق الأدنى القديم. وقد أقيم هيكل سليمان مكان المذبح الصغير، يحيط به فناء مقصور عليه، أعلى من الفناء الخارجى، ومن ثم فهو يفصله عن المركب المعمارى الأكبر.

ولا يختلف هيكل سليمان فى معماره عن الهياكل الكنعانية التى يبدو أنها تأثرت بالطراز الفرعونى الذى أخذه الفينيقيون من مصر وأضافوا إليه ما أخذوه من الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين. ولذلك، فإن الطراز الذى بُنى عليه الهيكل يُسمَّى «الطراز الفرعونى الآشورى». وقد هدم نبوختنصر البابلى هيكل سليمان عام ٥٨٦ ق. م، وحمل كل أوانيه المقدَّسة إلى بابل.

بعد هدم هيكل سليمان قام زرو بابل (أحد كبار الكهنة الذين سمح لهم الإمبراطور الفارسى قورش بالعودة إلى فلسطين) بإعادة بناء الهيكل فى الفترة ٥٢٠ - ٥١٥ ق. م، أى فى أربعة أعوام (فى حين استغرق بناء هيكل سليمان سبعة أعوام)، ويُسمَّى هذا الهيكل (هيكل زرو بابل). ويذكر العهد القديم أن هيكل زرو بابل بُنى بأمر من إله يسرائيل، وبأمر أباطرة الفرس: قورش ودارا الأول وأرتحشتا (عزرا ٦/١٤). ولذا، فقد كانت تُقدَّم

فيه قرابين يومية لصالح حامى صهيون الوثنى. وكان مرسومًا على مدخله خريطة لمدينة سوسة عاصمة الإمبراطورية الفارسية. ولم يكن هذا الهيكل (هيكل زروبابل) فى عظمة هيكل سليمان. ولا تُوجد إشارات كثيرة إلى شكله المعمارى ولا إلى تقسيمه، ولكن معظم الباحثين يميلون إلى القول بأنه لم يهدمه وإنما نهبه وحرقه. ولكن لم تحترق سوى الأجزاء الخشبية كالسقف والبوابات الخشبية وكسوة الحوائط الخشبية. أما الهيكل المعمارى، فقد بقى كما هو، فاستخدمه العائدون من بابل دون تغيير. أما فيما يتصل بمحتويات الهيكل، فنحن نعرف أن قدس الأقداس كان فارغًا تمامًا لأن سفينة العهد قد اختفت، ولم تكن توجد سوى صخرة عالية يضع الكاهن الأعظم عليها المبخرة. وكان هيكل زرو بابل يضم أيضًا أوانى هيكل سليمان الأخرى كالشمعدانات الذهبية ومائدة قربان الوجه ومذبح البخور.

أما الهيكل الثانى فهو «هيكل هيرود» الذى بناه الملك هيرود (٢٧ ق.م — ٤ م) الذى عيَّنه الرومان ملكًا، أى حاكمًا رومانيًا يحمل لقب «ملك» ويشار إلى هذا الهيكل بأنه «الهيكل الثانى». وحينما اعتلى هيرود العرش، وجد هيكل زروبابل متواضعًا للغاية، فقرر بناء هيكل آخر لإرضاء اليهود، ولكنه قرر أن يبنى فى الوقت نفسه معبدًا لآلهة مدينة روما حتى ينال رضا الإمبراطور أوغسطس ويثبت ولاءه له. ويبدو أن هذا المعبد الرومانى الوثنى كان لا يختلف كثيرًا فى بنيته المعمارية عن الهيكل اليهودى.

ويحتوى البهو المقدَّس فى هيكل هيرود على شمعدانات المينوراه، ومائدة خبز الوجه ومذبح البخور. وكان سقفه من خشب الأرز المطعم بالذهب. وكان مزوَّدًا بنوافذ على عكس قدس الأقداس الذى كان مظلمًا وخاويًا. ولم يكن الحائط الغربى أو حائط المبكى جزءًا من الهيكل نفسه وإنما كان جزءًا

من سوره الخارجى الذى أشرنا إليه. والوصف السابق لهيكل هيرود هو الذى ورد عند يوسيفوس. وهو مختلف عن الأوصاف التى وردت فى كتب المدراش. وقد هدم تيتوس الهيكل الثانى عام ٧٠ ميلادية.

قدس الأقداس وحجر الأساس

كان الهيكل مقسمًا إلى ثلاثة أقسام: المدخل والهيكل أو البهو المقدس ثم قدس الأقداس، وهو أهم الأماكن. ومصطلح «قدس الأقداس» تقابله فى العبرية كلمة «دبير»، ويبدو أنها من أصل عبرى بمعنى «تكلُّم»، أى أن الإله تكلم وأعطى المشورة والوحى. وهو أقدس الأماكن فى هيكل القدس. وقدس الأقداس عبارة عن مكعب حجرى مصمت «بدون نوافذ» أقيم على مستوى أعلى من الجزء المسمَّى «الهيكل» فى هيكل سليمان، يميل نحو التجريد كما هو الحال فى الحضارات السامية.

وكان يفصل قدس الأقداس عن بقية الهيكل ستارة وسلسلة من الذهب أو باب. ولم يكن يدخله سوى كبير الكهنة فى يوم الغفران ليتفوَّه باسم الإله (يهوه) الذى لا يستطيع أحد أن يتفوه به فى أى مكان أو زمان (ولعل التأثير المصرى واضح فى هذه العادة).

ويُعتبَر قدس الأقداس، فى التأملات الكونية التى تخص الهيكل، السماء السابعة. وكان يوجد فى قدس الأقداس ما يسمَّى حجر الأساس (بالعبرية: إيفن هيسود)، وهى نفس العبارة التى يستخدمها المهووسون من الصهاينة الذين كانوا يحاولون وضع حجر أساس الهيكل. وهذه العبارة، شأنها شأن عبارات أخرى كثيرة فى التراث الدينى اليهودى، حمالة أوجه، فكلمة «تسور» العبرية تعنى صخرة، ولكنها تعنى أيضًا «الإله». وعند إعلان استقلال إسرائيل أصر المتدينون أن ترد عبارة «تحت رعاية الإله» فرفض العلمانيون، فاستُخدمت كلمة «تسور» وليفهمها كل من يشاء بطريقته.

وهذا تقليد تلمودى. فثمة نزعة متعالية توجد فى معظم صفحات التلمود المليء بالأحكام الموجهة ضد غير اليهود (خصوصًا سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان)، فلن يدخل الجنة سوى اليهود. وقد خلق الإله الأغيار على هيئة الإنسان لكى يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خُلقت الدنيا من أجلهم، إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير، وهو على صورته الحيوانية. ولا يُعتدُّ بشهادة غير اليهودى أمام المحاكم إلا فى حالات قليلة. وإذا وقع أذى بشخص، فمن المهم للغاية تحديد هل هذا الشخص يهودى أم لا، بل إن هذا التمييز يسرى أيضًا في المعاملات التجارية. وفى مسائل الطهارة، يعتبر الأغيار أنجاسًا فى حياتهم. ولكن مقابرهم، باعتبار أنها غير مقدَّسة، لا تنجس الكهنة. والعكس صحيح بالنسبة إلى اليهود، فهم طاهرون فى حياتهم وقبورهم مصدر نجاسة أساسى للكهنة اليهود.

ويتناسى التلمود الفرق بين الأخيار والأشرار من الأغيار، رغم إنه تمييز أساسى فى العقيدة اليهودية نفسها. بل إن التلمود يطلب أحيانًا إلى اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين: أحدهما للتعامل مع اليهود، والآخر للتعامل مع غير اليهود (انظر: بابا متسيعا ٩٥أ، وبابا قما ١٣٣ أ). وقد جاء فى التلمود أنه لا يصح أن يباع لليهودى الشيء الذى يحتمل فساده إن تُرك، ولكنه من الممكن أن يُباع لغير اليهودى، كما يُحرِّم على الطبيب اليهودى أن يعالج مريضًا غير يهودى (إلا لدرء أذى الأغيار).

وكانت الرقابة الحكومية تفرض على اليهود أن يحذفوا بعض الفقرات التى تُظهر عداءً متطرفًا للأغيار، فبذلت محاولات لعدم استخدام كلمة «أغيار» على أن تستخدم بدلاً منها كلمات محددة الدلالة مثل «كوشى» (بمعنى «زنجى») و «كنعانى» أو «بابلى» بدلاً من «أغيار»

أو «مسيحيين»، وكان أعضاء الجماعات اليهودية يعرفون أن المقصود ليس الكنعانيين أو البابليين وإنما المسيحيون أو الأغيار.

وقد استخدم هرتزل هذه الطريقة المراوغة فى المؤتمر الصهيونى الأول، فقد قامت معركة بين بعض الصهاينة الذين كانوا يطالبون بأن الهدف الصهيونى هو تأسيس دولة يهودية فى فلسطين. قال المعتدلون إن هذا سيكشف الهدف الحقيقي للصهيونية مما قد يؤلب سكان فلسطين والعرب والدولة العثمانية ضد المشروع الصهيونى، ولذا طالبوا بالاكتفاء بعبارة «وطن قومي». وحينما احتدم الخلاف قال هرتزل: اكتبوا «وطن قومى» وسيفهم الجميع أنه «دولة يهودية». وقد تم ذلك بالفعل.

وعبارة «حجر الأساس» عبارة مراوغة قد يفهم منها المرء أنه «حجر أساس» عادى مثل أى حجر أساس آخر. ولكن إن تعمقنا قليلاً في التراث اليهودى لوجدنا أن الأجاداه (الجزء القصصى فى التلمود) تذهب إلى أن فلسطين توجد في مركز الدنيا والقدس فى وسط فلسطين، والهيكل فى وسط القدس، ويقع قدس الأقداس في وسط الهيكل، أى أن قدس الأقداس يقع في وسط الدنيا تماماً، ويوجد أمامه حجر الأساس «إيفن هيسود» (ويزعم بعض الحاخامات أن حجر الأساس هو الصخرة الشريفة).

ولكن كلمة «هيسود» الأساس لها إيحاءات دينية كثيرة. ففى التراث الصوفي الحلولى اليهودى يأخذ الإله شكل عشر تجليات نورانية هى بمثابة مراحل الفيض المختلفة والتجلى التاسع هو يسود عولام أى أساس العالم، ويشار إليه أحياناً بلفظ «يسود» وحسب أى الأساس، وهو الركيزة الأساسية لكل التجليات النورانية الأخرى، وهو أساس كل القوى النشيطة فى الإله. وإحدى معاني كلمة يسود هى شعب إسرائيل. فحجر الأساس هنا ليس مجرد حجر أساس وإنما هو رمز عميق تستخدمه الصهيونية

الدينية. فاليهود هم حجر الأساس، وهم جزء عضوى من التجلى الإلهى، فهم آلهة أو شبه آلهة لهم حقوق مطلقة، فهم مركز العالم وأساسها. وهى صياغة لا يعارضها العلمانيون.

ومصطلح «حجر الأساس» لا يختلف كثيرًا عن مصطلح شائع مثل «الكنيست» فالكنيست هو البرلمان الإسرائيلى، ولكنه فى التراث الدينى هو التجلى العاشر والأخير للإله، وهو أيضًا جماعة إسرائيل، وهو الشخيناه أى التجلى الأنثوى للإله، أى إن اليهود جزء لا يتجزأ من الإله، حقوقهم مطلقة، وأفعالهم مقدسة، تعلو على التأنيث.

وقبل أن نختتم هذا المقال يمكننا أن نعرِّف مراسم العبادة فى الهيكل. كانت مراسم العبادة فى الهيكل تختلف من فترة إلى أخرى، ولكن ملامحها الأساسية ظلت ثابتة. ففى كل صباح، كان أحد الكهنة ينظف ضريح القرابين من الرماد ثم يُذكى النيران. وبعد ذلك، كانت تُقدَّم قرابين اليوم (الجديدة). وكان الكاهن الأعظم (أو من ينوب عنه) يدخل البهو المقدَّس، وينظف الشمعدانات، ويحرق البخور على مذبح البخور، ويُقدِّم قربان خبز الوجه. وعند الغروب، كانت معظم الشعائر تُعاد من جديد. كان هذا هو النمط السائد للعبادة والقرابين فى الأعياد وفى يوم السبت، وكان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس فى يوم الغفران، وكان التفوه باسم يهوه يمثل ذروة هذه العبادة، حيث كانت هذه اللحظة تشكل نقطة التماس بين الإله والشعب والأرض، فهى النقطة التى يتجسد فيها الحلول الكامل.

وكان تركيز العبادة القربانية تركيزًا لموارد الدولة أيضًا، وقد كانت القرابين من أهم هذه الموارد إلى جانب الضرائب وجزية الرءوس التى فرضها سليمان على جميع رعاياه بحيث كان على كل ذكر يهودى أن يدفع نصف شيقل كل عام (وهو الشيقل المقدَّس). لهذا، لم يسمح بتقديم

أية قرابين خارج الهيكل بعد تأسيسه. وكان الهيكل، شأنه شأن كثير من الهياكل في الشرق الأدنى القديم، مصرفاً يضع فيه الأثرياء نقودهم ويرسلون إليه النذور والقرابين، كما كانت تُحفظ فيه رموز الدولة وطنافسها.

وقد استمر هذا الوضع مع هيكل هيرود الذي أشار إليه ول ديورانت بأنه «المصرف القومي»، وأشار إليه يهودا مينوهين بأنه «الهيكل/ السوق»، حيث كان يُوجَد الباعة وتجار الماشية والصيارفة،[٩] وكان هذا هو سرّ غضب السيد المسيح عند زيارته للهيكل.

ولما كان الهيكل هو الخزانة القومية أو المصرف القومي للدولة العبرانية المتحدة (ثم المملكة الجنوبية)، فإننا نجد أن القوات الغازية كانت تحاول نهبه أثناء الحروب كجزء من الحرب الاقتصادية وكجزء من محاولة ضرب الشرعية السياسية.

وكان الكهنة اللاويون يقومون على خدمة الهيكل، يترأسهم الكاهن الأعظم، وهو ما جعل فئة الكهنة من أكثر الفئات نفوذًا. وكانت فرقة الصدوقيين تعبِّر عن مصالح هذه الفئة وتدافع عن عبادة الهيكل القربانية. أما فرقة الفريسيين، فكانت تمثل المعارضة. ولذا، فقد كانت هذه الفرقة تؤيد إنشاء المعابد اليهودية المستقلة لأنها تحقق انفصال اليهودية عن الهيكل والكهنة.

□□□

هدم الهيكل وإعادة بنائه

من المصطلحات المتواترة في المعجم اليهودي الصهيوني مصطلح «هدم الهيكل» الذي يشير عادةً إلى عملية هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠ ميلادية. وقد هُدم الهيكل، حسب الكتابات الفقهية اليهودية، في

التاسع من آب، ويشكل هدم الهيكل صورة أساسية في الوجدان الديني اليهودي، فهو يُذكَر عند الميلاد والموت، وعند الزواج، يُحطِّم أمام العروسين كوب فارغ لتذكيرهم بهدم الهيكل (وقد يُنثر بعض الرماد على جبهة العريس). وفي الماضي، حينما كان اليهودي يطلي منزله، كان الحاخامات يوصونه بأن يترك مربعًا صغيرًا دون طلاء حتى يتذكر واقعة هدم الهيكل. وفي كل عام، يُحتفَل بذكرى هدم الهيكل بالصيام في التاسع من آب، وعند كل وجبة، ومع كل صلاة في الصباح، يتذكر اليهود الهيكل، ويصلون من أجل أن تتاح لهم فرصة العودة إلى الأرض المقدَّسة والاشتراك في بناء الهيكل. كما تُتلَى صلاة خاصة في منتصف الليل حتى يُعجِّل الإله بإعادة بناء الهيكل. ويذهب الشرع اليهودي إلى أن اليهودي يتعيَّن عليه أن يمزِّق ثيابه حينما يرى الهيكل لأول مرة وبعد مرور ثلاثين يومًا من آخر مرة رآه فيها.

ويرى بعض حاخامات اليهود أن هدم الهيكل كان عقابًا لهم على ما اقترفوه من ذنوب. وهذا الرأي يأخذ به المسيحيون، حيث يرون أن ذنب اليهود الأكبر هو إنكارهم أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّخ. وفي الكتابات العبرية، يُشار إلى تخريب الهيكل بكلمة «حوربان» التي تُستخدَم للإشارة إلى أي دمار يلحق باليهود، ومن ذلك الإبادة النازية ليهود أوربا.

وتذهب الكتابات الصهيونية، والمتأثرة بها، إلى أن هدم الهيكل على يد الرومان هو الذي تَسبَّب في تشتت اليهود في المنفى على هيئة أقليات، مع أن انتشار اليهود في بقاع الأرض كافة كان قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل وبدون قسر. والواقع أن مجموع اليهود خارج فلسطين كان يفوق بكثير عددهم داخلها قبل هدم الهيكل.

وبذلك يعود ظهور الصهيونية إلى اللحظة التي هدم فيها تيتوس الهيكل وانتهى الوجود «القومي» اليهودي في فلسطين. وهم، بهذا، يعلمنون

الصورة الأساسية فى الوجدان اليهودى، ويتبنونها كصورة أساسية فى فكرهم السياسى، فيعمقون تزاوُج الدينى والدنيوى، وتصبح العودة (أى الاستيطان بالقوة فى فلسطين) فعلاً دينيًا. ويقوم الصهاينة بالتأريخ لوقائع تاريخ العبرانيين، وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية فى فلسطين، بمصطلحات مثل «الهيكل الأول» و «الهيكل الثانى». ويشير بن جوريون وكثير من العلماء الإسرائيليين إلى دولة إسرائيل باعتبارها «الهيكل الثالث».

ويذهب الفقه اليهودى إلى أن الهيكل لابد أن يُعاد بناؤه وتُقام شعائر العبادة القربانية مرة أخرى حينما يعود اليهود إلى صهيون (أى فلسطين) بقيادة الماشيَح فى آخر الأيام، أى أن إعادة بناء الهيكل مرتبط بالرؤى الأخروية لا بالتاريخ الإنسانى. ولهذا، فقد تم تدوين هذه الشعائر فى التلمود مع وصف دقيق للهيكل. ويتلو اليهود فى صلواتهم أدعية من أجل إعادة بناء الهيكل. ولكن الآراء تتضارب، مع هذا، حول مسألة موعد وكيفية بناء الهيكل فى المستقبل. والرأى الفقهى الغالب هو أن اليهود يتعيَّن عليهم أن ينتظروا إلى أن يحل العصر المشيحانى بمشيئة الإله، وحينئذ يمكنهم أن يشرعوا فى بنائه، ومن ثم يجب ألا يتعجل اليهود الأمور ويقوموا بإعادة بنائه، فمثل هذا الفعل من قبيل الهرطقة، والتعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس). ويذهب موسى بن ميمون إلى أن الهيكل لن يُبنَى بأيد بشرية، كما يذهب راشى إلى أن الهيكل الثالث سينزل كاملاً من السماء. ويرى فقهاء اليهود أن جميع اليهود مدنسون الآن، بسبب ملامستهم الموتى أو المقابر، ولابد أن يتم تطهيرهم برماد البقرة الصغيرة الحمراء. ولما كان اليهود (جميعًا) غير طاهرين، بل ويستحيل تطهيرهم (بسبب عدم وجود الرماد المطلوب لهذه العملية)، وحيث إن أرض الهيكل (جبل موريا أو هضبة الحرم) لا تزال طاهرة، فإن دخول أى يهودى إليها

يُعدُّ خطيئة. ويضاف إلى هذا أن جميع اليهود، حتى الطاهر منهم، يَحرُم عليه دخول قدس الأقداس. ولما كان مكانه غير معروف لأحد على وجه الدقة، فإن من الفقه اليهودى كذلك أن تقديم القرابين أمر محرم لأن استعادة العبادة القربانية لابد أن يتم بعد عودة الماشيَّح التى ستتم بمشيئة الإله.

ولكنَّ هناك رأيًا فقهيًا يذهب إلى نقيض ذلك، حيث يرى أن اليهود يتعيَّن عليهم إقامة بناءً مؤقت قبل العصر المشيحانى، وأنه يحل لليهود دخول منطقة جبل موريا، لكن هذا هو رأى الأقلية ولم يصبح جزءًا من أحكام الشرع اليهودى. ولكن هذا الرأى ظل مدوَّنًا مطروحاً بسبب طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجى.

وقد استفاد الصهاينة من هذا التناقض داخل التركيبة الجيولوجية، فوصفوا الرؤية الحاخامية الأرثوذكسية بالسلبية، وقرروا أخذ زمام الأمور فى أيديهم. وقد أعلن الحاخام شلومو جورين أنه حدد مكان قدس الأقداس، وبالتالى يستطيع اليهود زيارة جبل موريا.

ويمكننا الآن أن نعرض لرأى الفرق اليهودية المختلفة فى العصر الحديث فى مسألة إعادة بناء الهيكل، يمكننا منذ البداية أن نقسمهم إلى صهاينة وغير صهاينة. أما غير الصهاينة، فيعارضون العودة الفعلية ومن ثم إعادة بناء الهيكل. وقد حذف الإصلاحيون الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل، ويستعملون كلمة «تمبل Temple» الإنجليزية، أى «المعبد»، منذ عام ١٨١٨ للإشارة إلى الهياكل اليهودية. وهم، فى الواقع، يقصدون أن المعبد، أينما وُجِد، حلَّ محل الهيكل، وأن الهيكل لن يتم استرجاعه أبدًا. أما الأرثوذكس، فيفضلون استخدام الكلمة اليونانية «سيناجوج» للإشارة إلى المعبد اليهودى، على أن تظل كلمة «هيكل» محدَّدة الدلالة،

لا تشير إلا إلى هيكل القــدس، وقـد احتفـظ الأرثوذكـس بالأدعيـة الخاصـة بالعودة، وتبعهم المحافظون. وتظل العودة، بالنسبة إلى الأرثوذكس، مسألة مرتبطة بعودة الماشـيَّح. أمـا بالنسـبة إلى المحـافظين، فـهى تشـبه المجـاز والتطلع الطوباوى المثالى.

أما الصهاينة، فينقسمون فى موقفهم من قضيــة إعـادة بنـاء الهيكـل إلى قسمين: صهاينة لادينيون وصهاينة دينيون. وفى الواقع، فإن الفريق الأول لا يكترث بالعبادة القربانية، ولا بإعادة بناء الهيكل. ولـذا، فـهم ينظـرون إلى القضية من منظور عملى، ويرون أن محاولـة الصهاينـة المُتدينـين إعـادة بناء الهيكل هى مسألة هَوَس دينى يهدد المُستوطَن الصهيونى بـالخطر دون عائد مادى ملموس. ومن ثم، نجد أن مسألة إعـادة بنـاء الهيكـل لا تتمتـع بشعبية كبيرة داخل إسرائيل التى تتمتع بـ - أو تعانى مـن - واحـد مـن أعلى مستويات العلمنة فى العالم. وقد أشار تيدى كوليك (عمدة القدس) إلى المهووسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل، وبيَّن أنهم يسيرون فى خط شبتاى تسفى؛ ذلك الماشيَّح الدجـال الـذى ألهـب حمـاس معظـم اليهود فى القرن السابع عشر، ووعدهم بالعودة إلى فلسـطين، وعيَّـن بعـض أتباعه حكامًا للأرض، ثم انتهت الحركة بالفشل، الأمر الذى رجّ اليهودية رجًا من أساسها وألقى بها فى أزمة لم تفق منها قط.

ويرى الصهاينة المتدينون (المتطرفون) المسألة من منظور مختلف، فمسألة إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزيـة بالنسـبة إليـهم، ولـذا فإنـهم يركزون جُلّ اهتمامهم على هـذه العمليـة، والقضيـة بالنسـبة إليـهم مسـألة عقائدية وليست علمية. والواقع أن كثيرًا من المنظمات الإرهابية الصهيونيـة الجديدة قد جعلت إعادة بناء الهيكل، وهدم الآثار الإسلامية الموجودة فـى هذا الموقع، من أهم أهدافها.

لا تشير إلا إلى هيكل القدس، وقد احتفظ الأرثوذكس بالأدعية الخاصة بالعودة، وتبعهم المحافظون. وتظل العودة، بالنسبة إلى الأرثوذكس، مسألة مرتبطة بعودة الماشيَّح. أما بالنسبة إلى المحافظين، فهي تشبه المجاز والتطلع الطوباوى المثالى.

أما الصهاينة، فينقسمون فى موقفهم من قضية إعادة بناء الهيكل إلى قسمين: صهاينة لادينيون وصهاينة دينيون. وفى الواقع، فإن الفريق الأول لا يكترث بالعبادة القربانية، ولا بإعادة بناء الهيكل. ولذا، فهم ينظرون إلى القضية من منظور عملى، ويرون أن محاولة الصهاينة المتدينين إعادة بناء الهيكل هى مسألة هَوَس دينى يهدد المُستوطَن الصهيونى بالخطر دون عائد مادى ملموس. ومن ثم، نجد أن مسألة إعادة بناء الهيكل لا تتمتع بشعبية كبيرة داخل إسرائيل التى تتمتع بـ - أو تعانى من - واحد من أعلى مستويات العلمنة فى العالم. وقد أشار تيدى كوليك (عمدة القدس) إلى المهووسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل، وبيَّن أنهم يسيرون فى خط شبتاى تسفى؛ ذلك الماشيَّح الدجال الذى ألهب حماس معظم اليهود فى القرن السابع عشر، ووعدهم بالعودة إلى فلسطين، وعيَّن بعض أتباعه حكامًا للأرض، ثم انتهت الحركة بالفشل، الأمر الذى رجّ اليهودية رجًا من أساسها وألقى بها فى أزمة لم تفق منها قط.

ويرى الصهاينة المتدينون (المتطرفون) المسألة من منظور مختلف، فمسألة إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزية بالنسبة إليهم، ولذا فإنهم يركزون جُلَّ اهتمامهم على هذه العملية، والقضية بالنسبة إليهم مسألة عقائدية وليست علمية. والواقع أن كثيرًا من المنظمات الإرهابية الصهيونية الجديدة قد جعلت إعادة بناء الهيكل، وهدم الآثار الإسلامية الموجودة فى هذا الموقع، من أهم أهدافها.

وهناك منظمة يهودية تُسمَّى «أمناء جبل الهيكل»، يرأسها ضابط سابق هو جيرشون سالومون ويموِّلها المليونير الأمريكي (المسيحي الأصولي) ترى رايزنهوفر، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسي. ويقود المتطرفون الصهاينة حملة لتأكيد أن المنطقة التي يُوجَد عليها الآن كلٌ من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة هي المنطقة التي كانت يُوجَد عليها الهيكل، ومن ثم فلليهود حقوق مطلقة فيها. وقد أسِّست مدرستان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مائتي طالب على شعائر العبادة القربانية، ليقوموا بها عند بناء الهيكل الثالث. وإحدى هذه المدارس، معهد الهيكل (بالعبرية: يشيفات هبَّايت)، وظيفتها الأساسية محاولة التعجيل بإعادة بناء الهيكل. وقد بدأت هذه المدرسة في إعداد أدوات العبادة القربانية، وانتهت من ثمان وثلاثين منها تم وضعها في متحف، وهي في سبيلها إلى إعداد الخمس والستين الباقية. وتُوجَد جماعات أخرى تدرس شجرات العائلات الخاصة بالكهنة حتى يمكن الإجابة عن سؤال نصه: مَن منهم المؤهَل لتقديم القرابين؟ وقد عُقد عام ١٩٩٠ مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل الكهنة. وهناك في فندق الهيكل في القدس مجسَّم مصغَّر للهيكل، وينوون أن يبنوا مجسمًا آخر أكبر حجمًا يتكلف مليون دولار يتم جمعها من يهود العالم دون سواهم.

وقد قامت جماعة أمناء جبل الهيكل بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث في احتفال تحت إشراف رئيس الجماعة المدعو جرشوم سالمون. وقد حضر الاحتفال، الذي جرى في منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٨٩، كاهن يرتدي ملابس كهنوتية خاصة مصنوعة من الكتان المغزول باليد من ستة خيوط مجدولة تم إعدادها في معهد الهيكل. وقد استخدموا في الاحتفال بعض الأواني الشعائرية، وبوق الشوفار، وأدوات موسيقية مثل الأكورديون. أما حجر الأساس نفسه، فحجمه متر مكعب، وقد قام حفاران يهوديان من

سابق إلى أن اليهود الإصلاحية واليهود العلمانيين (وهم يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم وإسرائيل) لا يكترثون بالهيكل - وكل العبادات القربانية وغير القربانية اليهودية ويجدونها بقايا غابر ميت لا يعنيهم البتة - بل إن بعضهم يجد أن متحف الهولوكوست في واشنطن هو الهيكل الحقيقي.

إلى جانب ذلك توجد حقيقة تاريخية يحرص الصهاينة على إخفائها وهي أنه توجد هياكل كثيرة. فالعبرانيون القدامى كانوا يحجون إلى مكان يسمَّى «شيلو» إلى أن تأسست المملكة العبرانية المتحدة وأصبحت القدس العاصمة، والهيكل هو مركز العبادة القربانية. ولكن المملكة المتحدة لم تدم أكثر من ثمانين عامًا، وعند انقسامها إلى مملكتين صغيرتين (٩٢٨ ق.م) فَقَدَ الهيكل كثيرًا من أهميته، إذ شيَّد ملوك المملكة الشمالية (يسرائيل إفرايم) مراكز مستقلة للعبادة. فبنى يربعام (أول ملوك المملكة الشمالية) معبدين أو هيكلين أحدهما في دان بالشمال والآخر في بيت إيل، وجعل فيهما عجولاً ذهبية، واتخذهما مزارًا ملكيًا مقدسًا له. وقد أحاط المعبدين بهالة من القدسية، وغيَّر موعد الأعياد، وطرد اللاويين الذين كانوا يشكلون البيروقراطية الدينية للمملكة العبرانية المتحدة. وقد فعل كل هذا حتى يقوِّض العبادة المركزية ويحول دون ذهاب مواطني مملكته إلى هيكل القدس في المملكة الجنوبية (يهودا). ورغم التحالفات التي كانت تُعقَد أحيانًا بين ملوك الشمال والجنوب، فإن الهيكل لم يستعد قَطّ مركزيته القديمة. وكثيرًا ما كان ملوك اليهود يضطرون إلى إدخال العبادات غير اليهودية تعبيرًا عن تحالفاتهم السياسية. فأنشأ سليمان مذابح لآلهة زوجاته الأجنبيات، الأمر الذي يتنافى مع مبدأ التوحيد. كما أن العبادات المختلفة كانت تعبيرًا عن التبعية السياسية، فقد أدخل منسَّى العبادة الآشورية تعبيرًا عن خضوعه للآشوريين.

ومن أطرف الأمثلة على تعدُّد الهياكل ما يسمَّى بهيكل أونياس، وهو الهيكل الذى شيَّده الكاهن الأعظم اليهودى أونياس الرابع الذى خُلع من منصبه في فلسطين ففرّ إلى مصر ومعه بعض الجنود اليهود، ولعلهم تحولوا إلى مرتزقة بعد وصولهم إلى مصر (وثمة رأى يذهب إلى أن الذى شيده هو، في واقع الأمر أبوه أونياس الثالث). ويبدو أن الهيكل قد شُيِّد بإيعاز من البطالمة (حكام مصر) فى عصر بطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥ ق.م)، لخلق مركز ليهود مصر يصبح مركزًا لولائهم ويبعدهم عن هيكل فلسطين التابع للسلوقيين. وقد مُنح أونياس، وجنوده، أرضًا ليستوطنوها ويعيشوا من ريعها عام ١٤٥ ق.م. وقد شُيِّد المعبد فى ليونتوبوليس (بالقرب من هليوبوليس). مكان معبد مصرى للإله باشت. وقد استند أونياس إلى نبوءة أشعياء (١٩/ ١٨ - ١٩) التى جاء فيها أنه سيُشيَّد مذبحٌ للإله فى وسط أرض مصر ليعطى هيكله شرعية دينية وقد أصبح أونياس كاهنة الأعظم.

وكان كثير من اليهود يعملون جنودًا مرتزقة ضمن حامية عسكرية تُرابط حول المعبد. وقد بُنِىَ الهيكل على هيئة قلعة يحيطها سور، ربما بسبب طابعه الاستيطانى القتالى. ورغم اختلافه، من الناحية المعمارية عن هيكل القدس، فإنه كان يحوى الأوانى الشعائرية نفسها، وكان يتدلى من السقف فانوس حل محل شمعدان المينوراه. وقد منح البطالمة لكهنة هذا الهيكل قطعة من الأرض ليعيشوا من ريعها.

ولم يكن هيكل أونياس معبدًا (سيناجوج) وإنما كان هيكلاً مركزيًا لإقامة شعائر العبادة القربانية، وكان الهدف هو إحلاله محل هيكل فلسطين، كما كان اليهود فى مصر يقدمون فيه القرابين ويحجون إليه. ورغم أن أقلية من يهود مصر اتخذت موقف المعارضة، فإن بعض فقهاء اليهود أبدوا اهتمامًا خاصًا به ودرسوا شعائره وهو ما يعنى اعترافًا ضمنيًا به، ولكن

الرأى الحاخامى الشائع هو رفضه لأنه كان يشكل منافسة للعبادة القربانية. وقد قام الرومان بإغلاق هذا المعبد عام ٧٣م إثر تَمرُّد قام به يهود مصر، أى إنه أغلق بعد مرور عامين على إغلاق هيكل فلسطين.

وهيكل أونياس لا يختلف كثيرًا فى تصميمه المعمارى عن المعبد/ القلعة فى أوكرانيا (حين كانت تابعة لبولندا فى القرن السابع عشر) فى المناطق الحدودية التى تفصل بين بولندا وبين روسيا. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة فى مثل هذه المعابد، التى كانت مصممة بطريقة يمكن استخدامها كحصون وقلاع عسكرية فى آن واحد.

ونشأت الحاجة لمثل هذا الطراز من المعابد فى إطار الإقطاع الاستيطانى البولندى فى أوكرانيا. فقد وظَّف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية فى عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين. فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين (أرنداتور) يعيشون فى مدن خاصة بهم (شتتلات) منعزلين لغويًا ودينيًا واجتماعيًا وثقافيًا عن جماهير الفلاحين. وكانت الجماعة اليهودية محل سخط الجماهير وغضبها (كما هو الحال مع أعضاء الجماعات الوظيفية، خصوصاً العميلة) ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة. ومع هذا فكان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح، وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين على حملها، وبكمية معيَّنة من البارود (حسبما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود).

وكانت هذه المعابد/ القلاع مصممة بطريقة تجعل بالإمكان استخدامها كمكان للعبادة والدراسة وكحصون وقلاع عسكرية. فكانت تُزوَّد بحوائط سميكة للغاية، كما أن المتاريس (حاجز السقف أو الشرفة) مزودة بكوات

لتخرج منها المدافع والبنادق، أثنـاء الاشـتباك مـع الجماهـير. ومـن أشـهر المعباد/ القلاع معبد لتسك Lutsk الذى بُنـى عـام ١٦٢٦ لخدمـة الأغـراض العسكرية بالدرجة الأولى. وصدر قرار ملكي ببنائه كان ينص علـى ضـرورة أن يلتزم اليهود بتزويد معبدهم هذا بكوات من الجـهات الأربـع وبالسـلاح الكافى (على نفقتهم)، كما يجب أن يكون المبعد/ القلعـة مـزودًا بعـدد مـن الرجال يكفى لصد الهجمات عليه. وصدر أمر لمعبـد ريسيسـوف بـأن يـزود نفسه بالبنادق والرصاص والبارود. وكانت المعابد/ القلاع تـزود عـادةً بـبرج مراقبة ضخم (كان يُستخدَم في زمن السلم كسجن يُودَع فيه المجرمـون مـن أعضاء الجماعة اليهودية).

وقد تكرس هذا النمط فى الدولة الصهيونية، فكثير من اليهود (على حد قول أحد الحاخامات المعادين للصهيونية) ينظـرون إلى إسـرائيل باعتبارهـا تحقيقًا لنبوءة إعادة بناء الهيكل، فهى هيكلهم الثالث، ورئيس وزرائها هو الكاهن الأعظم. وإن صدق هذا الحديث، فإن إسرائيل هى الهيكل/ القلعة، مكان فى حالة حـرب دائمـة ضـد السـكان الأصليـين، وهـى حالـة حـرب دائمة، مادام الاحتلال.

□□□

الهيكل: بركان متفجر

ذكرنـا أهـم التنظيمـات اليهوديـة/ الصهيونيـة المعنية بقضيـة الهيكـل وسـنتناول الآن الخلفيـة السياسـية والثقافيـة لتحـرك هـذه التنظيمـات مـن الهامش الإسرائيلى/ الصهيونى إلى المركز.

ويُلاحظ أن الفترة الأخيرة شهدت توسعًا كبيرًا فى نشاط هذه المنظمات، كما شهدت تنسيقًا عميقًا فيما بينها. وهناك سببان رئيسيان لهـذا التطـور، أحدهما خارجي والآخر داخلى. ويتمثل السبب الخارجى فى التخوف مـن أية ترتيبات ترسِّخ الوضع الراهن، الذى يخضع فيه جبل الهيكل لسـيطرة

الفلسطينيين. وأدى هذا التخوف إلى ممارسة ضغوط على الحاخامات وعلى دار الحاخامية الرئيسية فى إسرائيل من أجل إلغاء التشريع الدينى اليهودى الذى يحظر على اليهود دخول منطقة جبل الهيكل (لما كان موقع هيكل سليمان غير معروف على وجه الدقة، فإن هذا التشريع يُحرِّم على اليهود المتدينين دخول المنطقة خشية أن تطأ أقدامهم «قدس الأقداس»، وهو ما يُعتبر خطيئة).

وفى سياق التمهيد للاحتفال «بالعيد السابع للهيكل» فى فبراير ١٩٩٧، أعلن حاخامات منظمة «ييشا Yesha» (التى تمثل المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وقطاع غزة) فتوى ثورية تجيز لليهود دخول منطقة جبل الهيكل، وهو ما كان - حتى ذلك الحين - أمرًا محظورًا لدى جميع التيارات الرئيسية اليهودية، وجاءت الفتوى فى رسالة وقَّع عليها الحاخامات (ومن بينهم دانيال شايلو، أحد رؤساء مجلس حاخامات «ييشا»). وأهابت الرسالة «بكل حاخام يعتقد أنه من الجائز دخول جبل الهيكل أن يذهب بنفسه ويرشد أفراد طائفته إلى كيفية دخول المنطقة وفقًا للقيود الشرعية اليهودية».

□□□

أما السبب الداخلى فيتعلق بتصاعد أهمية مفهوم الهيكل فى الأوساط اليهودية. ففى غضون السنوات الأخيرة، أصبحت هذه القضية متغلغلة فى جميع القطاعات الدينية، ومن ثم تقلَّصت أهمية الحائط الغربى، بينما تركَّزت الأنشطة على الهيكل. وبعد أن كان يُنظر إلى إعادة بناء الهيكل باعتباره أمرًا تقرره الإرادة الإلهية وحدها برز مؤخرًا موقف يدعو إلى ضرورة القيام بعمل ما للتمهيد لبناء الهيكل. وهذا مثل جيد على ما نسميه «صهينة اليهودية»، أى إعادة صياغة المفاهيم الدينية اليهودية لتتفق مع الرؤية الصهيونية. فعلى سبيل المثال تُحرِّم الأرثوذكسية (أى اليهودية

التقليدية) عودة اليهود إلى فلسطين، نعم تُحرِّمها، وتعتبرها عملاً من أعمال الكُفر والهرطقة وارتكاب خطيئة الداحيكات هاكتس، أى التعجيل بالنهاية. فاليهودية الحاخامية كانت تطلب من اليهود أن ينتظروا فى صبر وأناة حتى يأذن الإله بالعودة، ويرسل بالمسيح المخلِّص اليهودى ليقود شعبه إلى أرض الميعاد. وكانت متتالية الخلاص تأخذ الشكل التالى:

منفى - انتظار - مجىء المسيح المخلِّص - عودة اليهود

جاء الصهاينة وغيَّروا هذه المتتالية وأصبحت على النحو التالى:

منفى - انتظار - عودة للإعداد لمجىء المسيح المخلِّص - مجىء المسيح المخلِّص - عودة اليهود

ويتبدى تزايد الوعى بقضية الهيكل فى عدد المؤتمرات التى عقدتها جماعات «أحباء الهيكل» (شوشاراى هامكداش Shocharey HaMikdash). وقد عُقد أحدث هذه المؤتمرات فى عام ١٩٩٩، وموَّلته وزارة الشئون الدينية. وكانت الوزارة السابقة تضم ستة وزراء على الأقل ممن يطالبون بضرورة السماح لليهود بتأدية الصلوات فى منطقة جبل الهيكل. كما طالب قاضى المحكمة العليا، مناحم إيلون، بأن تعيد الحكومة الإسرائيلية النظر فى سياستها بخصوص جبل الهيكل. أما عمدة القدس، إيهود أولمرت، فقد زج بنفسه مؤخرًا فى غمار المعركة بشأن هذه المنطقة.

وحتى عهد قريب، كان عدد «أحباء الهيكل» - الذين يرون فى تدمير المساجد الكائنة فى تلك المنطقة غاية ضرورية ينبغى أن ينذر البشر أنفسهم لتحقيقها - لا يتجاوز عشرات من النشطاء فى عدد من الحركات التى ليس لها نفوذ يُذكر. إلا أن السنوات الخمس الأخيرة شهدت تزايدًا كبيرًا فى عدد نشطاء هذه الجماعات ومؤيديها، وكذلك تنامى التعاطف الجماهيرى مع فكرة تدمير المساجد.

ففي مقابلة مع صحفية جيروساليم بوست الأسبوعية (١ نوفمبر ١٩٩٦) صرَّح نوام ليفنات، من زعماء حركة «حاى فى قايام Hai V'Kayam» (أى حى وقائم)، بأنه يتطلع إلى وضع يمكن فيه نسف القبة الذهبية على جبل الهيكل والإطاحة بها إلى عنان السماء، واستطرد موضحًا فكرته بقوله: «إذا توجَّه ثلاثة أشخاص لنسف القبة الذهبية سوف يكونون مجرد مجانين، وإذا فعلها ثلاثون شخصًا فسوف يكون هذا تنظيمًا سريًا، وإذا كانوا ثلاثمائة فهم يشكلون حركة، أما إذا كانوا ثلاثة آلاف فهذا يُعدُّ ثورة. إن الأمر كله يعتمد على عدد من يشاركون فى هذا العمل. والأمل الذى أصبو إليه هو حشد قوة جماهيرية لتنفيذه».

وفى ١٥ سبتمبر ١٩٩٨، أثناء فترة حكم بنيامين نتنياهو، عُقد «المؤتمر السنوى لأحباء الهيكل» فى مركز بنياناى ها أوما الدولى للمؤتمرات بالقدس. وشارك فى المؤتمر آلاف الأشخاص من الدينيين القوميين، وغلاة اليهود الأرثوذكس واليهود العلمانيين، ودعا خلاله الحاخامات إلى ضرورة اتخاذ ترتيبات جوهرية لبناء الهيكل فى نفس موقع المساجد. وكانت الدعوات للمؤتمر موجهة من رئيس «لجنة الدستور والقانون والعدل» فى الكنيست وعضوة الكنيست حنان بورات (الحزب الدينى القومى)، وقد طُبعت على أوراق الكنيست الرسمية. وأعرب رئيس لجنة الكنيست هذه عن ترحيبه بالمشاركين، كما حيَّا المؤتمر عضو الكنيست موشى بيليد (حزب تسوميت)، وكان يشغل آنذاك منصب نائب وزير التعليم، وهكذا، بارك الكنيست وباركت الحكومة الإسرائيلية، بشكل رمزى واضح خطط «أحباء الهيكل».

وفيما يلى عرض للتسلسل الزمنى لنمو جماعات «أحباء الهيكل»:

التاريخ	الحدث	عدد المشاركين
أبريل ١٩٩٠	أول مؤتمر علنى لمنظمات جبل الهيكل (العيد الأول للهيكل)	٦٠
فبراير ١٩٩٧	المؤتمر السابع لمنظمات جبل الهيكل	١٠٠٠
سبتمبر ١٩٩٨	المؤتمر الثامن لمنظمات جبل الهيكل	٢٠٠٠
ديسمبر ١٩٩٩	مظاهرة من أجل جبل الهيكل، نظمتها حركة «زو أوتزينو Zo Artzenu»	٤٠٠٠
أغسطس ٢٠٠٠	مظاهرة من أجل جبل الهيكل أمام بوابة الأسود	٥٠٠٠

المنظمات التى تسعى لإعادة بناء الهيكل

يبدو أنه يوجد عدة منظمات ضالعة بشكل نشط فى تعزيز فكرة بناء الهيكل الثالث على مستوى الممارسات العلمية. وتنشط كل من المنظمات التالية فى العمل فى مجالها الخاص، ولكنها تتفق مع المبادئ العامة لـ «أحباء الهيكل»، التى تقوم على نظرية المراحل، بدءًا بدراسة واستعادة الممارسات والشعائر المتعلقة بالهيكل وانتهاءً ببناء الهيكل فى نفس موقع المساجد فى منطقة جبل الهيكل. أما الدائرة الثانية فتضم طائفة واسعة من جماعات التأييد من بينها هيئات دينية يهودية مثل المحكمة الحاخامية لجبل الهيكل، ومنظمات لا تهدف للربح مقرها فى القدس مثل «عتيريت كوهانيم Aterett Cohanim»، التى تركز على شراء ممتلكات بالقرب من حوائط جبل الهيكل، ومنظمات متطرفة مثل «شوفو نانيم Shuvu Banim»، وجماعات «بيشا بالقرب من حوائط جبل الهيكل، ومنظمات متطرفة مثل «شوفو بانيم Shuvu Banim»،

وجماعـــات «ييشــا Yesha» (وهـى اختصـار كلمــات يهــــودا والســامرة وغـزة)، و «زو أوتزينـو Zo Artzenu»، بالإضــافة إلى بعـــض الحاخامـات والشخصيات العامة.

□□□

«أحباء الهيكل» (شوشاراى هاميقدش Shocharey HaMikdash)

هى الجماعة التى تمثِّل الإطار العام لمعظم المنظمات المعنية بجبل الهيكل ويرأسـها العلامـة هليـل وايـــز، والفكـــرة الأساسـية مــن تشـكيلها هــى «جمــع الأصــابع المتفرقــة فــى قبضــة واحــدة»، علـــى حـــد تعبـــير يهودا عتسيون. ومن أبـرز العنـاصر القياديـة فـى الحركـة الحاخـام بـاروخ كاهانـا، ابـن الحاخـــام مائـــير كاهانـــا مؤسِّـس حركـــة «كـــاخ»، الـــذى اغتيل مؤخرًا.

حركة بناء الهيكل

يرأسها الحاخام ديفيد إلباوم، وتتـولى الجوانـب العمليـة مـن اسـتعادة الشعائر وغيرها من الممارسات المتعلقة بالهيكل.

منظمة شومراى هامقداش Shomrey HaMikdash (حراس الهيكل)

وهى منظمة أم تضم خمس منظمات تركِّز نشاطها على الحرم المقدَّس وهى:

(أ) ماخون هامقداش Machon HaMikdash (معهد الهيكل)

أسسها فى عام ١٩٨٣ كل من الحاخام يسرائيل أرييل، وموشى نيمان، ومايكل بن حورين فـــى الحــى اليـهودى فـى القـدس. والجديـر بـالذكر أن الحاخـام أرييـل كـان الثـانى فـى قائمـة مرشـحى حركـة «كـاخ» لعضويـة الكنيست فى منتصف السبعينات. وقد وَجِّهت فى الثمانينات إلى الحاخـام أرييل تهمة محاولة التسلل إلى منطقة جبل الهيكـل بغـرض «إذكـاء العـداء

والكراهية بين اليهود والعرب». كما كـان موشـى نيمـان، وهـو من سـكان مستوطنة ميتسيف بيرشو، ومايكل حورين، من سكان مستوطنة نوف، في مرتفعات الجولان، عضويـن سابقين فـى حركـة «كـاخ». ويـرى الحاخـام أرييل أن بناء الهيكل لن يتم عن طريق المعجزات بل مـن خـلال مبـادرات عملية فعالة. وتحصل هذه المنظمة على دعم مالى من الدولة ومسـاعدات من شابات في هيئة «شيروت لئومى Sherut Leumi» (هيئـة قوميـة للنسـاء). كما يؤكد بعض نشـطاء المنظمـة أنـها تتلقـى أيضًـا مسـاهمات مـن هيئـات مسيحية أصولية.

(ب) هاتنوعاه لكينون هامقداش (الحركة من أجل إنشاء الهيكل)

ويرأسها الحاخام يوسف البويم، وكانت قد أصـدرت لسـنوات صحيفـة باسم «فلنبن الهيكل» وتُصدر الآن مجلة باسم «بين القاعة والمذبح».

(جـ) إل هار هامور El Har amor (إلى جبل حامور)

جماعـة أكاديميـة تـهتم بـالعمل النظـرى، وأعضاؤهـا الأسـاسـيون مـن مسـتوطنة يتزهـار، مثـل الحاخـام يتسـحاق شـابيرا، والحاخـام دودى دوداكيفيتش، وشاى داوييم، والحاخام يوسى بلاى، وتعمل هـذه الحركـة على تنظيم حملات متكررة لتوجـه اليـهود إلى الحـرم القدسـى، كمـا تعقـد دورات لطلاب المدارس الدينية لهذا الغرض.

(د) المدرسة الدينية «الفكرة اليهودية»

وكان قد أسسها عدد من الأعضاء السابقين في حركة «كاخ».

(هـ) زو ارتزينو Zo Artzenu (هذه أرضنا)

ويتزعم هذه الحركة موشى فيجلين. وهى مـن أبـرز الحركـات اليمينيـة المتطرفة. وزعيمها من مستوطنة «كرناى شومرون» وكانت قد تأسَّسـت بعـد اتفاقيات أوسلو وتضم عدة آلاف من النشطين في المستوطنات.

حاى فى قايام (حى وقائم) أو «ما زال على قيد الحياة» Hai v'Kayam

أسسها فى مطلع التسعينات «يهودا عتسيون Yehuda Etzion» من مستوطنة عوفرا، وسبق إدانته ضمن الجماعة اليهودية السرية التى خططت لنسف المسجد الأقصى عام ١٩٨٤. ومجموعة من سكان مستوطنة بات عين. وتصف الحركة نفسها بأنها حركة مشيحانية «من أجل بعث مملكة إسرائيل»، كما يصف أعضاء الحركة أنفسهم بأنهم ينتمون إلى «ثقافة الهيكل الثالث». وتعمل المنظمة من أجل تمكين اليهود من الصلاة بحرية فى الحرم القدسى، وتقوم بالعديد من المحاولات لاقتحام الحرم بقوة. ومن بين الأعضاء الآخرين البارزين فى الحركة يوآف ميرنر، الذى أسس فى منتصف السبعينات منظمة «جال Gal» السرية، التى يتمثل هدفها الرئيسى فى تحويل إسرائيل إلى دولة دينية تسير حسب الشرائع اليهودية ونسف المساجد فى منطقة جبل الهيكل، وقد اتُهم وسُجن ثلاث مرات بتهمة التخطيط لنسف المساجد، وموتى كاربل، الرئيس الأسبق لمجلس «ييشا» الذى يمثِّل جميع المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ونوام ليفنات (شقيق عضو الكنيست ليمور ليفنات، الذى شغل من قبل منصب وزير الاتصالات، وهو من العناصر القيادية فى «الليكود» ومن أنصار بنيامين نتنياهو)، ونوام طالب فى «يشيفا قبر يوسف» (اليشيفا هى حلقة أو مدرسة تلمودية)، وهو قائل العبارة المذكورة آنفًا عن نسف قبة الصخرة.

نساء الهيكل

ترأس هذه الجماعة ميشيل أفيزير، وهى ربة بيت من سكان كريات شوئيل بالقرب من حيفا. وتعمل المنظمة على جمع الحُلى الذهبية والأحجار الكريمة استعدادًا لبناء الهيكل. وتُحفظ هذه الحُلى فى «مؤسسة الهيكل».

لاها تحيلاه Lachatchila (إلى البدء)

يرأسها لحاخام موشى فيجلين، الذى يرأس أيضًا حركة زو أرتزينوذات النزعة القومية، وهو نسب بنيامين نتنياهو. وتنصب أنشطة المنظمة على بناء الهيكل بالجهود البشرية التى لا تعتمد على قدوم الماشيح.

ميشماروت هاكوهانيم Mishmarot HaKohanim (أحكار الكهنة) ٤

تتألف هذه المنظمة من أفراد عائلة كوهين، التى تُعتبر من نسل قبيلة لاوى، وتتمثل مهمتها فى المساعدة فى تأدية الشعائر المقدسة فى الهيكل.

وفى سياق اتخاذ الترتيبات الفعلية لبناء الهيكل، تُقسّم الأرض إلى ميشماورت (أحكار، أى مناطق مخصصة لغرض ما)، مثل ميشميريت يهودا، وميشميريت منشا وغيرها. وهناك شخص مسئول عن كل حِكر، ويتولى خدمة الكهنة فى تلك المنطقة. ويتجمع الكهنة معًا ويحرر كل منهم استمارة تتضمن البيانات الشخصية ووصفًا للعمل الذى يُعد للقيام به «عندما يحين الوقت ويصدر الأمر»، أى عندما يحين وقت تأدية الشعائر المقدسة. ويجب أن تتوفر لدى أعضاء «ميشماروت هاكوهانيم» مهارات وخبرات فى مجالات البناء والتنظيف والذبح وتقديم الذبائح ضمن الشعائر المتعلقة بالقرابين، وعزف الموسيقى وما إلى ذلك.

وللتدريب على شعائر الذبح، طلب بعض سكان مستوطنة «ميتسبح بيركو» من يهودى أمريكى يمتلك مصنعًا للبلاستيك فى تكساس أن ينتج المصنع نماذج من البلاستيك على هيئة حيوانات مثل الحملان والأبقار والطيور وأن يتبرع بها لاستخدامها فى التدريب على الذبح وتقديم القرابين. وهناك برنامج آخر وُضع فى المستوطنة ويتمثل فى بناء نموذج كامل للهيكل داخل المستوطنة على أرض يبلغ كل من طولها وعرضها ١٨٧

مترًا. ولكن المشروع جُمِّد في الوقت الراهن، نظرًا لمشاكل تتعلق بالتصميم والتمويل والشرائع الدينية.

وتوجد في المستوطنة «كوليل Kolel» (وهي مدرسة تلمودية للرجال المتزوجين) متخصصة في الدراسات المتعلقة بالهيكل. وفي الساعة السادسة من صباح كل يوم يتجمع عدد من الرجال تحت إشراف حاخام المستوطنة يهودا كروتزر لدراسة القوانين الشرعية المتعلقة بالهيكل وتقديم القرابين.

أما موشي نيمان، وهو من سكان مستوطنة ميتسبح بيركو، فهو مسئول عن الجوانب العملية في مشروع بناء نموذج الهيكل على تلال المستوطنة، وكذلك عن تنمية الموارد المالية وحشد المؤيدين. وللحديث بقية.

نيئماناي هار هابيت Ne'emaney Har HaBayit (أمناء جبل الهيكل)

أسسها جيرشون سولومون، وتعمل بمعزل عن المنظمة الرئيسية التي تمثل إطارًا عامًا لمثل تلك الجماعات. ويحصل سولومون على أموال من تجمعات مسيحية أصولية في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ترى أن حرب يأجوج ومأجوج وبناء الهيكل يمثلان مرحلة لاهوتية ضرورية تسبق عودة المسيح. وقد ادعى سولومون أن ما يقرب من عشرة آلاف مسيحي من مختلف أنحاء العالم، وبينهم مسيحيون من بلدان إسلامية مثل مصر وإندونيسيا وبلدان أخرى في إفريقيا، قد انضموا مؤخرًا إلى حركته. كما أكد أن عدد الأعضاء المسجلين في الحركة داخل إسرائيل يربو على عشرة آلاف.

□□□

المحكمة الحاخامية لجبل الهيكل

تضم هذه الهيئة حاخامات من «أحباء الهيكل» من أمثال دوف ليور، ونحمان كاهانا، ويسرائيل أرييل، ويختلف موقفها الشرعي بخصوص

دخول اليهود إلى منطقة جبل الهيكل عن مواقف معظم الحاخات من مختلف التيارات اليهودية. وفي أغسطس ٢٠٠٠ أصدرت المحكمة فتوى شرعية تجيز لليهود دخول جبل الهيكل في مناطق معينة لا تشكل جزءًا من حرم الهيكل، الذي لا يمثل في نظرهم أكثر من خمسة بالمائة من مساحة المنطقة.

□□□

منتدى استيطان القدس

يمثل هذا المنتدى إطارًا عامًا للجماعات التي تسعى إلى استعادة المنازل في القدس. والهدف من توحيد هذه الجماعات هو تركيز الأنشطة في مختلف الجماعات والتنسيق في الأمور ذات الاهتمام المشترك، ومن أبرز هذه الجماعات:

«عتيريت كوهانيم Ateret Cohanim»، أسسها عام ١٩٧٨ بعض أعضاء «يشيفات هاجولان» (المدارس التلمودية في الجولان) لتكون بمثابة مدرسة تلمودية لدراسة القوانين المتعلقة بالكهنة والقرابين. وتلتقي الجماعة مرتين سنويًا من ممثلي وزارة الشئون الدينية وغيرها من الهيئات لدراسة القوانين الخاصة بالقرابين المقدسة والهيكل. ويؤكد حاخام الجماعة، شلومو أفنير، على دراسة قوانين الهيكل باعتبار تلك نوعًا من الإعداد الروحي والفكري لبناء الهيكل.

* «بيت أوروت Beit Orot»، أسسها بني إيلون، الذي لايزال العنصر القيادي في الجماعة حتى بعد انتخابه في الكنيست، وحاخام الجماعة هو إلحانات بن نون.

* «عموتان إلاد Amutat Elad»، تمارس نشاطها في إر ديفيد (خارج حوائط المدينة القديمة)، ويرأسها ديفيد باري. ويشارك الحاخام تاو في

أنشطتها، ولكـن الجماعـة مسـتقلة، وتتخـذ قراراتـها بنفسـها دون التقيـد بأحكام الحاخامات.

* «عتيريت ليوشونا Ateret Leyoshna»، جماعة غير نشطة، والزعيـم الروحى لها هو الحاخام أفيجدور نيفاتسال، حاخـام الحـى اليـهودى فـى المدينة القديمة.

□□□

شوفو بانيم Shuvn Banim

تتخذ هذه الجمعية مـن الحـى الإسـلامى فـى القـدس مقرًا لهـا. وهـى جماعة متطرفة خطيرة تتألف من بعض اليهود التائبين، ولبعضـهم سـوابق جنائية والبعض الآخر من الجنود السابقين فى الجيش الذى تتوفـر لديـهم قدرات عسكرية عملية، ومعظم طلاب هذه المدرسة التلمودية ينحـدرون مـن أوسـاط مُعدمـة تـتزايد فيـها معـدلات البطالـة، ويتسـمون بعقليـة فوضويـة لا تخشى الحكومة أو القانون.

وتجمع بين زعماء المدرسة وطلابها نزعة مشيحانية متطرفة يغذيها زعيم المدرسة، الحاخام إليعازر بيرلاند، الذى يتسم بشخصيته القياديـة وبشـطط أفكاره. وتُعتبر هـذه الجماعـة مـن أخطـر التنظيمـات التـى يمكـن أن تقـوم بأنشطة عنيفة فى جبـل الهيكـل، وذلـك بـالنظر إلى أنـها تجمـع مـا بـين الأصولية الدينية والتطرف القومى والخلفية الإجرامية والنزعة المشـيحانية، فضلاً عن موقعها الجغرافى من جبل الهيكل (عشرة أمتار).

□□□

حركة فاشيم بياروق (نساء بالزى الأخضر)

وتتزعمها نادية مطر، وهى مستوطنة «إفرات» فـى «جـوش عتسـيون»، وكانت قد تأسست كرد على حركة «ناشيم بشاحور» (نساء بالزى الأسـود)

اليسارية. وتضم حركة «ناشيم بياروق» فى عضويتها عشرات من السيدات اليمينيات، وهى تعارض أية تسوية سياسية مع الفلسطينيين.

□□□

حركة كاخ

وهي أبرز وأخطر حركات اليمين المتطرفة. وسبق أن أسَّسها مائير كاهانا الذى قتل فى نيويورك عام ١٩٩٣، وهى تُعتبر محظورة وخارجة عن القانون. ويتزعمها حاليًا باروخ مارزيل من مستوطنى الخليل وتم اعتقاله عدة مرات. ومعظم أعضائها من: كريات أربع والخليل والقدس وبناى براك وصفد وطبرية. وقد انضم إليها مؤخرًا ٨٠٠ عضو جديد. وكان أعضاؤها السابقون يُقدَّر عددهم بحوالى ٥٠٠٠ شخص من بينهم ٢٥٠ جنديًا يخدمون فى الوحدات المقاتلة. ويشارك فى زعامة الحركة ١٨ عضوًا يمثلون الأمانة العامة. وهذه الحركة لا تعمل كجبهة سياسية فقط بل كجبهة اجتماعية أيضًا وتجذب إليها بعض القطاعات المظلومة فى المجتمع الإسرائيلى من الروس وأعضاء شاس والحراديم، ويتم تمويلها من أموال التبرعات وتُقدَّر ميزانيتها بمئات الآلاف من الدولارات سنويًا يأتى نصفها من الإسرائيليين والنصف الآخر من حملات التبرع بأمريكا.

حركة كاهانا حاى

وكان يتزعمها بنيامين كاهانا الذى قُتل مؤخرًا، وهو نجل الحاخام مائير كاهانا مؤسِّس حركة «كاخ»، وهى تتبنى إستراتيجية مشابهة لحركة «كاخ» وكلاهما محظورتان وفقًا للقانون الإسرائيلى ومعظم أعضائها من اليهود ذوى الأصل الأمريكى ويقيمون فى مستوطنة «كاخ» فى شمال الضفة الغربية، وتم تدريبهم على استخدام السلاح فى الخارج.

الفصل السابع

انهيار إسرائيل من الداخل

الفرار من الخدمة العسكرية

الجيوب الاستيطانية تم غرسها فى إفريقيا وآسيا عــن طريـق الاستعمار الغربى لاستيعاب الفائض البشرى فى القارة الأوربية، ولتكون قواعد للدفاع عن المصالح الغربية فى آسيا وأفريقيا. وينتمى الجيب الاستيطانى الصهيونى لهذا النمط، فقد أسس ليستوعب الفائض البشرى اليهودى ولوضع حل للمسألة اليهودية، وفى الوقت نفسه عليه أن يقوم بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكرى والسياسى والمالى الذى يقدمه له الغرب. والجيوب الاستيطانية تفرض على سكان آسيا وإفريقيا بحد السلاح الغربى، ولذا فوجودها يستند إلى القوة العسكرية التى تحاول طرد السكان الأصليين أو قمعهم، ولتحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمى لهذا النمط، وقد أحرزت قدرًا لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت فى أن ترسخ فى وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعبًا مختارًا (بالمعنى الدينى والعلمانى) وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش حتى إنه وُصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة. إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة، ففى المجتمع الاستيطانى، لابد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديرًا بالاشتراك فى الحكم وصنع

القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلى بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسِّهم الأخلاقى والقومى والدينى، ورغبتهم فى البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلى نفسه. ومما دعَّم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التى ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج واستمرار الأساطير الصهيونية.

وحتى فترة قريبة كان التطوع فى صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة. حتى إن هذه القوات كانت تضطر فى الماضى إلى الاعتذار لعدد من الراغبين فى التطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. وقد سجلت حالات انتحار فى الماضى، من جانب الشباب الذى كان لا يستطيع الالتحاق بالقوات المسلحة.

غير أن الوضع قد تغيَّر، وقد لوحظ مؤخرًا انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها. فأشار إسحق مردخاى (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه قد طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية فى صفوف الشباب الإسرائيلى.

وفى إحصاء عام ٢٠٠٠ تساءل أحد كبار الضباط عن شرعية قيام الجيش بتجنيد إلزامى بينما ٢٠٪ من الشباب لا يتم تجنيدهم، وحوالى ٢٠ - ٢٥٪ يهربون أثناء الخدمة (ملحق هاآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠). وفى إحدى استطلاعات الرأى صرَّح ثلث الشباب الإسرائيلى أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التى تستغرق ثلاث سنوات) فعلوا ذلك. ويعتمد الجيش الإسرائيلى على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالى ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر حتى سن الخمسين لإعادة تدريبهم. وقد لوحظ أن حوالى الثُلث يتغيبون. ويطلقون الآن فى إسرائيل على الذين يؤدون خدمة

الاحتياط الكلمة العبرية «فرياريم» والتي تعني «البلُهاء». وأثناء الصدام الذى وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين. وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية (عدد المجندين الذين يرغبون في الخدمة في الأحداث القتالية يتراجع ليصل إلى ٥٪ من عدد المجندين).

وقد نشرت هاآرتس في ملحقها الذى سبقت الإشارة إليه إحصاءات دقيقة عن هذا الموضوع:

* في عام ١٩٩٨ أعرب ٦٥٪ من البنين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣، ١٨ سنة عن استعدادهم للخدمة في الوحدات القتالية، أما في عام ٢٠٠٠ فقد هبطت النسبة إلى ٥٣٪.

* وفي عام ١٩٩٨ أعلن ٢٣٪ تفضيلهم للخدمة بالقرب من منازلهم، أما في عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٣٤٪.

* وفي عام ١٩٩٨ أعلن ١٪ من البنين فقط أنهم لا يرغبون في أداء الخدمة، أما في عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٦,٢٪.

* وكلما كانت أعمار المشاركين في الاستطلاع ترتفع - أى كلما كانت مسألة الخدمة العسكرية بالنسبة أقل نظرية وأكثر واقعية - كان موقفهم أكثر سلبية. وهكذا فعلى سبيل المثال أعلن ٥,٥٪ فقط من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم ١٣/ ١٤ سنة عن رغبتهم في عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية مقابل ٦,٦٪ من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

* بالنسبة للبنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٣ : ١٤ سنة فقد أعرب ٥٥,٨٪ ممن شملهم الاستطلاع عن رغبتهم في أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل ٤٧,٩٪ فقط من البنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

* اتضح أنه كلما كان المستوى الاجتماعي والاقتصادى لمن شملهم الاستطلاع منخفضًا كان الدافع لديهم منخفضًا كثيرًا. فقد أبدى أقل من ٣٠٪ ممن يعتبرون من الطبقة الاجتماعية والاقتصادية ذات المستوى المنخفض رغبتهم في أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل أكثر من ٦٥٪ ممن يعتبرون من الطبقة العليا.

وقد ظهرت حركة شبابية في إسرائيل تسمّى «بروفايل جديد» وهي حركة مستقلة تأسست في أكتوبر ١٩٩٨ وهدفها العمل على إلغاء التجنيد الإلزامي وتقوم الحركة بعقد ندوات للشباب حول قضية الخدمة العسكرية وتجمعات احتجاجية من أجل رافضي الخدمة. كما أن أعضاء هذه الحركة يساعدون الشباب الراغب في الامتناع عن أداء الخدمة أو التسريح من الجيش سواء لأسباب تتعلق بالوضع الاقتصادى لأسرهم أو لأسباب أيديولوجية أو لمجرد عدم الرغبة في الخدمة. ويزعم أعضاء هذه الحركة أن أفكارهم نالت تأييدًا كبيرًا خلال العامين والنصف الماضيين. فحينما أسّست الحركة كان بها حوالى ١٥٠ عضوًا ولكنها تضم الآن مئات الأشخاص مما يدل على شرعيتهم المتزايدة يشير عدد من أعضاء الحركة إلى أن إحدى المشتركات في أنشطة الحركة هي رونى بن عامى قرينة شلومو بن عامي (وكان من أهم الوزراء في حكومة باراك).

كل هذا يعني أن الظاهرة لم تستقر بعد، وأن المنحنى آخذ في التصاعد، وهذا يثير إشكالية كبيرة بالنسبة للجيب الاستيطاني الصهيوني، ذى المهمة القتالية، وبخاصة مع اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة.

وظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية ظاهرة خطيرة في أى مجتمع، وتزداد خطورتها في مجتمع استيطاني، يتهدده السكان الأصليون، ويواجه مشكلة أمنية في علاقته بجيرانه، وأوكل له مهمة قتالية من قِبَل أولياء

نعمته. ومع هذا يجب أن نشير إلى أن القضيــة - رغـم خطورتـها - لم تُـثر في المجتمع الإسرائيلي على نطاق واسع لأسباب عملية منها: أن الجيـش الإسرائيلي يفضل أن يستبعد مثيرى المشاكل ويتركهم وشأنهم حتى لا تُثـار القضية وحتي لا يناقشها الرأى العام. وبينما كان الجيش في الماضي ينشـر استطلاعات الرأى الخاصة بالرغبة في الخدمة في الوحـدات القتاليـة فـي الجيـش، نجـد الآن أنـه توصـل إلى نتيجـة مفادهـا أن كـثرة النشـر حـول انخفاض الدافع له أثر سلبى واضح، ولذا آثروا الصمت.

ويبدو أن من أهم أسـباب الإعفـاء مـن الخدمـة العسـكرية هـو الأمراض النفسـية، ويشـير اللـواء فينوعـام لاوفـر إلى أنـه لـو أقيمـت عيـادة نفسـية تضم ١٠ أطباء فإنه بعد فترة سيكون عندهـم مـن الحـالات النفسـية الكثير والكثير.هذا يعني أن الأمراض النفسية في تزايـد فـي إسـرائيل، ومـن ثـم الإعفـاءات العسـكرية. ولكـن اللـواء يسـارع بنفـي ذلـك بقولـه «إن القـدرة التشخيصية للأمراض النفسية (وليس الأمراض النفسية ذاتها) قد تزايدت». ولذا فهو يرى أن العيادات النفسـية الكثـيرة لا ضـرورة لهـا. واللـواء لاوفـر عنده مطلق الحرية أن يفسر الأمور كما يراهـا هـو، ولكـن مـا أتـى بـه مـن حقائق تتحمل تفسيرات أخرى غير التي أوردها، ولعـل أقربـها للواقـع أن حالة الحرب المستمرة التـي يعيشـها المستوطن الصـهيوني أمـر لا يتحملـه الجهاز العصبي للإنسان، ولذا تتزايد الأمراض النفسية (وهو ما تؤيده كثير من الدراسات العلمية).

□□□

سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية

يبدو أن المجتمع الإسرائيلي قد أصبح أكثر تسامحاً تجاه المتـهربين مـن الخدمة العسكرية، ولا يفرض عليهم أية عقوبات. خـذ علـى سـبيل المثـال حالة سيرجي سندلر البالغ من العمر ٢٣ عامًا، وهو طالب يدرس الفلسـفة

في جامعة بن جوريون ويصف نفسه بأنه يعشق السلام وينبذ العنف. سُرِّح سندلر هذا من الجيش بعد أن أودع السجن العسكرى فى أواخر عام١٩٩٤.
ولكن ماذا حدث له بعد ذلك؟ يعلق سندلر على وضعه قائلاً: «لقد كنت واثقًا بما فيه الكفاية بأننى حكمت على نفسى بالمقاطعة الاجتماعية لعدم خدمتى بالجيش، ولكن اتضح لى أن المجتمع الإسرائيلى قد تغيَّر وبسرعة خلال السنوات الخمس الماضية. إن وصم أولئك الذين يرفضون الخدمة بالخزى والعار لم يعد موجودًا. وأشعر بأن نظرة التقديس التى كان المجتمع يُكنها لجيش الدفاع قد اختفت. كما أن المولعين بالجيش قادرون على قبول أيديولوجيتى واحترامى ويفهمون أنهم يلتحقون بالخدمة العسكرية لأنهم يؤمنون بها وأنا لم ألتحق بها لأننى لا أؤمن بها» (ملحق هاآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠).

وقد أشرنا فى المقال السابق إلى قرينة شلومو بن عامى (الوزير الإسرائيلى السابق) وعضويتها فى جمعية «بروفايل جديد» التى تقف ضد الخدمة العسكرية، ويمكن أن نشير هنا إلى أحد أبطال التهرب من الخدمة العسكرية، وهو أفيف جيفين، ابن شقيقة موشى ديان. ويُعدُّ جيفين من أشهر المغنين الشباب فى إسرائيل، ويُقال إنه يشبه فى ملامحه وحركاته مايكل جاكسون. وقد ظهر قبل سنوات فى التليفزيون وهو يتحدث عن كيفية حصوله على الإعفاء من الخدمة لأسباب نفسية. وقد انتهى به الأمر إلى الهجرة إلى بريطانيا بعد أن تقدم بطلب مسبب للهجرة ذكر فيه أنه يهاجر بسبب «سرطان الاحتلال».

ومن الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى الفرار من الخدمة العسكرية النقاش الدائر حول مسألة تجنيد طلبة المدارس الدينية. فعند إعلان الدولة تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، تحت ضغط الأحزاب الدينية ولكن

عددهم حينذاك كان لا يتجاوز ٤٠٠. ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠، ولعله زاد الآن عن ثلاثين ألفًا. ومع تزايد علمنة المجتمع الإسرائيلى وتزايد استقطابه بدأت أصوات الاحتجاج على هذا الوضع تتزايد، ولكن الأهم من هذا، وجود هذا العدد الضخم من الشباب الذين يرفضون الخدمة فى الجيش استنادًا إلى أسباب دينية يهودية، يسبغ قدرًا كبيرًا من الشرعية على الفرار من الخدمة العسكرية.

وقد ذكرنا حتى الآن عدة أسباب تؤدى إلى الفرار من الخدمة العسكرية، ولكن يمكننا القول: إنها كلها جانبية إذا ما قورنت بهذين السببين المنفصلين المتصلين.

١ - سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية.

٢ - سقوط الأيديولوجية الصهيونية وتصاعد معدلات العلمنة والاستهلاكية والأمركة.

ولنبدأ بالعنصر الأول. هناك دوافع كثيرة تدفع الإنسان للقتال من أهمها الرغبة فى البقاء، وهى رغبة قد تأخذ شكلاً اجتماعيًا وقد تأخذ شكلاً فرديًا. فيمكن أن يُعرِّف الفرد نفسه بأنه عضو فى جماعة وبالتالى يتوحد بقاؤه مع بقاء الجماعة. وتصبح شعارات مثل «الدفاع عن الوطن» - «حفظ الكرامة القومية» - «حدود الأرض المقدسة» لها معنى ومضمون. ولإنجاز ذلك لابد للمجتمع أن يقدم للفرد أيديولوجية تفسر له ما حوله وترسم له ماضيه وحاضره ومستقبله بطريقة ترضيه وتقنعه أنه يمكنه أن يحقق ذاته من خلالها.

ولكن إن لم يقتنع الفرد بالأيديولوجية المهيمنة، فإن كل الشعارات السابقة تصبح سخيفة طنانة، ويبدأ الفرد فى تعريف بقائه على أنه بقاء

فردى لا علاقة له بالمجتمع، وبالتالى يبحث عن منفعته الشخصية وعن متعته الفردية، بغض النظر عن التكلفة الاجتماعية.

وقد حدث شيء من هذا القبيل في المجتمع الاستيطاني الصهيوني. وقد ذكرنا في مقال سابق أن المؤسسة العسكرية الصهيونية أقنعت الشباب الإسرائيلي أن حربهم ضد العرب هي حرب دفاع عن النفس وأنه لا خيار لهم في ذلك. حتى إن أحدهم قال إن شعار الجندي الإسرائيلي هو أنه «يجب أن تطلق النار على عدوك، ثم فلتذرف الدمع ساخنًا. حتى يمكن للجندي الإسرائيلي المسكين أن يحتفظ بنقائه الداخلي! كما كانوا يتحدثون عن «طُهر السلاح الإسرائيلي»، فهو سلاح لا يُستخدم إلا في الدفاع عن النفس وليس لقتل الأبرياء.

كان هذا الوضع سائدًا حتى عام ١٩٦٧ حين وصلت «الانتصارات» الإسرائيلية إلى ذروتها ولكنها لم تأت لا بالسلام ولا بالنصر، كما أثبتت نظرية الأمن الإسرائيلية فشلها، فهي كانت قد أقنعت الإسرائيليين أن استعمال القوة سيحقق له الانتصار النهائي والأمن الدائم وأن العمليات العسكرية السريعة الإجهاضية ستحقق كل شيء. ولكن بعد بضعة شهور وجد الإسرائيليون أنفسهم في حرب استنزاف مع عدوهم المهزوم، الأمر الذي دعا المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون للحديث عن «عُقم الانتصار». ثم جاءت حرب ١٩٧٣ والعبور العربي العظيم، وبعدها جاء غزو لبنان، وهو «انتصار» إسرائيلي آخر عقيم جعل الإسرائيليين يتحدثون عن «المستنقع اللبناني» الذي غرقوا فيه، ثم أخيرًا اضطروا للانسحاب من الجنوب اللبناني في جنح الظلام، ثم هناك انتفاضة عام ١٩٨٧، وأخيرًا انتفاضة الأقصى، وحين استخدمت القوات العسكرية الإسرائيلية في ضرب المواطنين العُزّل.

وقد استنتج الشباب الإسرائيلى من كل هذا ما يلى:

١ - أدرك المستوطنون الصهاينة أن ذاكرة العرب حية وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم فى برج حصين ولا أن تقدِّم لهم الحماية طوال الوقت.

٢ - أدرك كثير من الشباب الإسرائيلى أن الدولة الصهيونية ليست فى حالة دفاع عن النفس كما يقولون وإنما هى دولة عدوانية. ففى حرب لبنان على سبيل المثال أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية سلام الجليل هو هدف دفاعى حتمى لوقف ما يسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو متر مربع من لبنان. ثم ظهر أن الهدف الحقيقى كان هو فرض حكومة وظيفية عميلة فى لبنان تحت حماية إسرائيل. وقد أدّى هذا إلى تداعى الإجماع القومى الإسرائيلى. كما أن استمرار الاحتلال فى الضفة الغربية لما يزيد على عشرين عامًا كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره دفاعًا عن النفس.

٣ - استُخدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية فى قمع المدنيين إبّان انتفاضة ١٩٨٧ (ثم انتفاضة الأقصى)، وهو أمر يصعب تفسيره أو تبريره أو تصويره على أنه دفاع عن النفس، إلى جانب أن استخدام القوات العسكرية النظامية فى ضرب المدنيين يفقدها كثيرًا من احترامها لنفسها وانضباطها.

٤ - مع تراجُع احتمالات الحرب بين العرب والمستوطنين الصهاينة (بعد توقيع شتى معاهدات السلام) أصبح الحديث عن العمليات العسكرية الإسرائيلية باعتبارها دفاعًا عن النفس أمرًا مستحيلاً، خاصة وأن المؤسسة الصهيونية تردد شعارات السلام بشكل مُبالغ فيه أحيانًا (رغم معرفتها باستحالة تحقيقه)، حتى تُدخِل الطمأنينة على قلب المستوطنين، وتوهمهم أن النهاية عند المنعطف المقبل وأن الأمن المطلق مسألة أيام أو شهور.

٥ - لا شك فى أن زيادة معدلات العلمنة والعولمة والسعار الاستهلاكى لا تساعد كثيرًا على تصعيد روح القتال. كما أن جو الخصخصة العام السائد فى إسرائيل يزيد تمركز الفرد حول نفسه ويجعله يضع نفسه قبل المجتمع.

٦ - واكب كل هذا تآكل الأيديولوجية الصهيونية، فهى لم تعد الإطار الفكرى الذى يفسر للمستوطنين واقعهم ويبرر وضعهم القتالى.

باختصار شديد إن الأيديولوجية الصهيونية ما عاد لها مجال فى المجتمع الصهيونى ولم يعد الشباب الإسرائيلى يقتنع بها. لكل هذا صرح وزير الدفاع (السابق) إسحق مردخاى أن انخفاضًا حادًا طرأ على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية فى صفوف الشباب الإسرائيلى. ثم أضاف: «يعتقد البعض أننا وصلنا مرحلة الراحة، والبعض الآخر يرى أننا يجب ألا نساهم بكل جهودنا فى الدفاع عن إسرائيل».

ولعل خطاب العريف إيال روزنبرج إلى الكولونيل شاؤول شاهار يلخص موقف كثير من الشباب الإسرائيلى».. لم تساورنى من قبل فكرة رفض التجنيد، فكل أصدقائى مجنَّدون، وكل أفراد عائلتى المولودون فى إسرائيل جُنِّدوا وهم فى مثل سنى. وقد حرص والداى على غرس عقيدة التجنيد فى نفسى، لأنها فى رأيهما، سلوك إيجابى ينبغى أن يُقبل دون نقاش.. مر الوقت ثقيلاً، وانتهت فترة التدريب.. ولكن الكارثة المعرفية التى خلفتها بداخلى بدأت تتحرك فى اتجاه مخالف، إلى نوع من التأمل الذاتى لفهم ما يدور حولى، تأمل فى طبيعة «جيش الدفاع الإسرائيلى» وفى الأنظمة الاجتماعية والسياسية التى قذف بنا داخلها.. وعندئذ وجدت نفسى أشك فى جميع افتراضاتى الرئيسية عن ضرورة وجود الجيش الإسرائيلى، وكذلك فى قيمة الخدمة العسكرية، وفى مصداقية القيم التى يتفاخر بها الجيش الذى يسمى نفسه «جيش الدفاع».

إنه الجيش الذى ذبح الآلاف بل عشرات الآلاف من الفلسطينيين خلال عام ١٩٤٨ وطرد وطارد مئات الآلاف، وهو الجيش الذى ساهم فى تنظيم الهجمات الإرهابية الفاشلة خلال فترة تولى موشى شاريت رئاسة الوزارة.. وسعى إلى استعادة سيطرة القوى الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية على قناة السويس أثناء حرب ١٩٥٦. وهو الجيش الذى هاجم وضرب بالقنابل وذبح كثيرًا من الجنود والمدنيين فى الأردن ومصر وسوريا على مدار العشرين عامًا الأولى من إقامة دولة إسرائيل. وهو الجيش الذى طرد قاربة ١٣٠ ألف سورى من أرضهم فى مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧ والتى يحتلها إلى الآن، والذى يُخضع أكثر من مليون فلسطينى فى قطاع غزة وغيرها لاحتلاله الدموى الغاشم منذ عام ١٩٦٧، ولايزال يمارس نفس إجراءاته القمعية فى معظم الأراضى المحتلة، يُدمر ويذبح المواطنين المدنيين بل توقف حتى هذه اللحظة. وهو الجيش الذى قتل آلاف المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين، وجرح ما يقرب من ٣٠٠ ألف مواطن على مدار العشرين عامًا الأخيرة فقط.. كل هذا بدعوى حماية مستوطنات شمال إسرائيل.. الجيش الذى يساند ويدعم إقامة المستوطنات فى الأراضى المحتلة، ويسعى إلى بقائها فى وجه المقاومة الشعبية.. الجيش الذى يفسد ويشوه أرواح من يخدمون فيه، لدرجة أنهم يضعون مصالح القادة الشخصية ومصالح النظام العسكرى فوق مصالحهم ومصالح أصدقائهم. ومع ذلك، فإنه يواصل زعمه بأنه «جيش الدفاع»، وبأنه يحفظ «نقاء الجنود»، وبأنه «جيش الشعب»..

وبناءً على ما تقدم، فإننى أعلن لكم رفضى التام لأن أخدم فى جيش الدفاع الإسرائيلى، بأية طريقة، بأى موقع، فى أية وحدة، بأية رتبة،

فى أى زمن، وتحت أى ظـرف مـن الظـروف. وأطـالب فـى الوقـت نفسـه بأن تعتبرنى السلطات الإسـرائيلية مواطنًـا عاديًـا لم يعـد هنـاك مـا يربطـه بجيش الدفاع.

(المصدر: Indymedia News, 10 December 2000).

ولكن من المفارقات التى تستحق التسـجيل والملاحظـة، أن هـذا الجيـل الجديد الذى يفر من الخدمة العسكرية ولا يكترث بـهـا، هـو جيـل «أكـثر عسكرية» كمـا يقـول أفينـيرى شـاليط (أسـتاذ العلـوم السياسـية بالجامعـة العسكرية). وقد وُلِد أعضاء هذا الجيل فيمـا يسـمَّى «أرض إسـرائيل» ولـذا فهم يعتقدون تمامًا الاعتقاد أن الاحتلال بالقوة «مسألة طبيعيـة» وأن الضفـة الغربيـة ليسـت «أرضًـا محتلـة» (أوكيوبـايد occupid) وإنمـا أرض قوميـة توراتية ومن ثم فـهى أرض «متنـازع عليـها» (ديسـبيوتيد disputed – كمـا يقول المصطلح الأمريكى) وعلى اليهود الاحتفاظ بها ولا يحـق لهـم التنـازل عنها أو التفاوض بشأنها. والعرب هنا هم «عرب يهودا والسامرة»، وبالتالى «خرق حقوقهم» لا يشكل مشكلة خلافية بالنسبة لهم.

□□□

الرأس الصغيرة والمعدة الكبيرة

أشرنا مـن قبـل إشـارة عـابرة إلى أن تـآكُل الأيديولوجيــة الصهيونيــة باعتباره أحد أسباب الفرار من الخدمة العسكرية. وحيث إن هذا البُعد هـو فى واقع الأمر أهم الأسباب طُرًا، فإن الأمر يتطلب شيئًا من الإفاضة.

أخبرت الصهيونية الشباب الإسـرائيلى أنـهم طليعـة الشـعب اليـهودى المضطـهد، وأن غالبيـة أعضـاء هـذا الشـعب سـتهرع إلى الدولـة اليهوديــة فور إعلانها، وهـو مـا لم يحـدث حتـى الآن، لأن غالبيـة أعضـاء الشـعب «المضطهد المنفى» لا تـزال متشبثة «بمنفاهـا»! كمـا أخبرتـهم الصهيونيـة

أن العرب لا وجود لهم وأن فلسطين أرض بلا شعب، وإن وُجدوا فيمكن تهميشهم وتهشيمهم عن طريق القوة، وهو ما أثبتت الأعوام السابقة عبثيته.

باختصار شديد لم يعد الشباب الإسرائيلي يأخذ الأيديولوجية الصهيونية على محمل الجد. والجدير بالذكر أن عدد هؤلاء آخذ في الازدياد نظرًا لازدياد عدد المهاجرين إلى إسرائيل (وبخاصة من روسيا). ودافع الهجرة عند هؤلاء دافع اقتصادى محض لا تشوبه أية شوائب أو ادعاءات أو مثاليات صهيونية.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودى المثالى (أى المجتمع الصهيونى) كجزء من مشروع حضارى متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية. والتطبيع هنا يعنى الشفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادى من الغير أو الأغيار ومن الاعتماد السياسى عليهم، كما يعنى عدم الانغماس فى أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة والتحول إلى شعب يهودى منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية الإنتاجية، وبالتالى على مصيره الاقتصادى والسياسى.

لكن، وبعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على تأسيس الدولة الصهيونية، يمكن القول بأنها أبعد ما تكون عن قصة النجاح الموعود. أما على مستوى السيادة السياسية، فالمستوطن الصهيونى يضطر دائمًا – نتيجة وضعه – للاعتماد على قوة خارجية تضمن له البقاء والاستمرار من خلال الدعم العسكرى والسياسى المستمرين، وهو ما يفرغ مفهوم السيادة من مضمونه تمامًا.

والدعم الاقتصادى للدولة الصهيونية يحل مشاكلها الاقتصادية ولكنه تذكير يومى للمواطن الإسرائيلى بأن الصهيونية لم تنجح فى تطبيع اليهود

وفي شفائهم من أمراض المنفى. فالمستوطن الصهيوني أصبح شخصية استهلاكية، ولم يتحول إلى شخصية منتجة يعمل بيديه ويتواجد في مختلف المراحل الإنتاجية.

والفشل الأيديولوجي وتأكل الأيديولوجية يُولِّد ما يُسمَّى «أزمة المعنى». وعادةً ما تؤدى أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق في عنصر مادى بشكل كامل (شرب المخدرات - الإباحية - الاستهلاك) يبحث الإنسان من خلاله عن قدر من الثبات والتوازن إن لم يكن من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس إذ أن تصاعُد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلاً من تهدئتها، ويزداد بذلك تآكُل الأيديولوجية وتقويضها.

ولكن ما يهمنا في هذا السياق أن التآكُل الأيديولوجي يؤدى إلى أن ينكفئ المستوطن على نفسه، ويبحث عن بقائه الشخصي وعن خلاصة من خلال التوجه الحاد نحو اللذة. وما يزيد من هذا التوجه نحو اللذة حدة ما نسميه الانتقال من مرحلة التقشف التراكمية (التى امتدت من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧) إلى مرحلة الاستهلاك الفردوسية. ففي الفترة الأولى التقشفية كان المستوطنون الصهاينة يعيشون حياة تقشفية يزرعون ويأكلون وينظمون أنفسهم تنظيمًا عسكريًا صارمًا، تحسبًا لهجوم السكان الأصليين عليهم بعد الاستيلاء على أرضهم وإبادة بعضهم. وقد واكب ذلك ضبطًا للنفس وإنكارًا للذات، بل التضحية بها.

ولكن كل هذا كان يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية، أى تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما كان يتم من إرجاء للإشباع وتقشف حاد كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، خاصةً وأن المستوطن الصهيوني، رغم كل الادعاءات الأيديولوجية اقتُلع

من وطنه واستوطن في أرض مغتصبة بحثًا عن الحراك الاجتماعي والرفاهية الاقتصادية.

ولهذا فحينما حققت إسرائيل انتصارًا عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عامًا وحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت المقدرة على التحمل إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعني أن ارتفاع معدلات العلمنة في المجتمع أدَّى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسِّس بنيته التحتية. ولذا، تزايدت معدلات الأمركة في المجتمع، وضَعُفت مقدرة المستوطنين على تحمُّل المشاق. ومع تَفجُّر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لكل هذا تغيَّرت الأنماط الإدراكية في المجتمع فتراجع نموذج الكيبوتسنيك (عضو الكيبوتس) المتقشف المحارب وظهر نموذج روش قطان، أي المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة الاستهلاكي الرخو، وظهر مجتمع الـ 3V: الفولفو والفيديو والفيلا.

ونظرًا للتوجُّه نحو اللذة في التجمُّع الصهيوني نجد أن المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائدًا يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعي وعن رفع مستوى معيشتهم. ولذا يُلاحَظ أن المستوطنات الجديدة في الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا توجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية. والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل

شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هى دعوة سافرة للاستهلاك، فإحدى الإعلانات تتحدث عن فيلا واسعة، في موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود ٦٧ ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب.

ومما يساعد على تفشي النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هى أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتي ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويركز على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفورى.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التى لها نفس الأثر فى التجمُّع الصهيونى، فالإنسان الذى يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضى. وفى إطار العولمة تصبح السلع العالمية (أى الأمريكية) هى رمز هذه الجنة الجديدة.

وهذه الظواهر موجودة فى كل المجتمعات ولكن أثرها السلبى أعمق فى التجمُّع الصهيونى لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعى إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقرى.

ويرتبط بكل هذا الاتجاه نحو الخصخصة، فالخصخصة تعنى أن نقطة البدء هى الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردى يسبق المشروع القومى. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكى. وللخصخصة أعمق الأثر فى التجمُّع الصهيونى باعتباره تجمُّعًا استيطانيًا لابد أن ينظم نفسه تنظيمًا جماعيًا ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام

مقاومة أصحاب الأرض. ولاشك أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعني أن هناك دائمًا جماعات بشرية جديدة، تفد على المجتمع وتصعد من سعاره الاستهلاكي.

في هذا الإطار وُلِدت الحساسية الجديدة لدى الشباب الإسرائيلي، فهو - على حد قول المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس - لا يفكر إلا في ذاته. والأيديولوجية الصهيونية لا تعني الكثير بالنسبة له، فهو منخرط في حياته اليومية وفي مجتمعه المترف الذي لم تشهده إسرائيل في أي وقت سابق. لقد أصبحت النزعة الفردية وكذلك النزعة المالية هما المسيطرتين على المجتمع الإسرائيلي. وتحولت إسرائيل من بلد كان يقدس الجماعية إلى بلد يقدس الفردية، ومن بلد تتحد كل صفوفه لتطبيق المشروع الصهيوني إلى بلد تغذيه الفردية والمادية من كل جانب.

لقد تراجعت الدوافع الاجتماعية للخدمة العسكرية وأصبح الدافع الأساسي هو الراتب حتى إنه في بداية عام ١٩٩٩ هدد الطيارون العسكريون الاحتياط بالإضراب إلا إذا حصلوا على بوليصة تأمين شاملة. لكل هذا يمكن القول بأن الكيان الاستيطاني يتحرك نحو الاعتماد على جيش نظامي، الدافع الأساسي للخدمة فيه هو الدوافع الشخصية، بدلاً من جيش الاحتياط الشعبي، وهذا التحول سيكون له أعمق الأثر على سياسات إسرائيل الداخلية والخارجية.

□□□

آين بريرا - لا خيار

لحظات نادرة هي التي يعبر فيها الوجدان الصهيوني عن مخاوفه وقلقه، وعما أسميه «الهاجس الأمني». الذي يرى الصهاينة أنه يعود إلى تجربة اليهود مع الاضطهاد على يد شعوب الأرض والطرد من أوطانهم، وهي التجربة التي وصلت إلى ذروتها مع الإبادة النازية لليهود. أما أعداء

اليهود فهم يقولون: إن الهاجس الأمنـي سببه جبن الشخصية اليهودية وحرصها الشديد على الحياة الدنيا! ومثل هذه الأطروحات تفترض وحدة اليهود وأنهم كيان مستقل عما حولهم.

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الهاجس الأمنى عند المستوطنين الصهاينة لا يختلف عن الهاجس الأمنى الذى يشعر به كل المستوطنين فى كل الجيوب الاستيطانية، ومصدره هو الخوف من السكان الأصليين الذين اغتُصبت أرضهم، والذين قد يهبون فى أية لحظة للمطالبة بها ولطرد المغتصبين. هذا ما حدث للمستوطنين الأمريكيين البيض فى أمريكا الشمالية، وهذا ما حدث لهم فى أستراليا ونيوزيلندا والجزائر وجنوب إفريقيا. انظر على سبيل المثال لهذه المقطوعة الوصفية: «كان الرجال يمسكون المحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يُعَدّون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما فى الحقول أو فى مخزن الغلال».

إن هذه المقطوعة تقدم لنا صورة مُزارع مُسلح يعمل فيما أسميه «الزراعة العسكرية»، أى الزراعة الاستيطانية، وهى الزراعة التى تختلط فيها مهنة الزراعة بمهنة القتال، فهى زراعة تتم على أرض مغتصبة، يقف أصحابها الأصليون على حدودها يقرعون الأبواب بلا هوادة.

والمقطوعة السابقة مقتبسة من قصة قصيرة أمريكية «دفن روجر ملفن» لناثانيال هوثورن، كتبها فى منتصف القرن التاسع عشر، ويصف فيها المستوطنون البيض فى أمريكا الشمالية. ولكنها أيضًا تصلح لوصف المستوطنين الصهاينة ولمؤسسات إسرائيل الزراعة العسكرية مثل الكيبوتس.

الهاجس الأمنى إذن ليس له جذور يهودية وإنما جذوره استيطانية. وهذا ما أدركه بعض أعضاء النخبة السياسية الحاكمة، وكثير من الأدباء

الصهاينة (والخطاب الأدبى [على عكس السياسى] يفصح عن مكنونات النفس البشرية وهواجسها لأنه يعبر عن كيان الإنسان ولا وعيه. أما فى حالة الخطاب السياسى، فالمتحدث عادةً ما يأخذ حذره، ويراقب كلامه فلا يُظهر ما يبطن).

وقد فعل موشيه ديان عكس هذا تمامًا، فى الخطاب الذى ألقاه فى أبريل ١٩٥٦ أمام قبر صديقه الشاب روى روتبرج، ضابط الأمن فى إحدى الكيبوتسان (ناحال أوز)، والذى لقى مصرعه على يد الفدائيين الفلسطينيين. وكلمة ديان تستحق أن نقتبسها بأسرها، فهى لحظة صدق نادرة:

«فجر أمس قُتل روى. أعماه هدوء الصباح الربيعى ولم ير هؤلاء الذين طلبوا حياته المختبئة خلف الأحراش.

دعونا اليوم لا نلقى اللوم على القتلة. ما الذى يمكن أن نقوله ضد كراهيتهم البشعة لنا؟ ثمانى سنوات الآن وهم يقيمون فى معسكرات اللاجئين فى غزة، ويرون بأم أعينهم كيف ننقل لوطننا الأراضى والقرى التى امتلكوها وامتلكها أجدادهم من قبل.

علينا أن نطلب دم روى من بيننا وليس من بين عرب غزة. كيف أغمضنا أعيننا ورفضنا أن ننظر بواقعية إلى مصيرنا، ونرى قدر جيلنا بكل وحشيته؟ هل يمكن أن ننسى أن هذه المجموعة من الصغار، القاعدة فى ناحال أوز، تحمل على أكتافها بوابات غزة الثقيلة؟

ما وراء أحراش الحدود يبرز بحر من الكراهية والثأر: أثر يتطلع لليوم الذى سيقوم فيه الهدوء بكسر حدة حذرنا، اليوم الذى نذهب فيه للسفراء المنافقين الذين يطالبوننا بإلقاء سلاحنا. علينا، وعلينا وحدنا. يصرخ دم

روى من جسده المغدور، لأننا أقسمنا آلاف المرات أن دماءنا لن تُسفك هدرًا. إلا أنه بالأمس فقط قاموا بإغوائنا، وسمعنا وصدقنا.

دعونا اليوم نراجع أنفسنا. نحن جيل الاستيطان وبدون عمود الصلب وفوهة البندقية لن يمكننا زراعة شجرة أو بناء بيت. دعونا لا نخشى الاطلاع على الكراهية التى تستهلك وتملأ حياة المئات (الآلاف) من العُرب الذين يعيشون حولنا. دعونا لا نغفى طرفنا حتى لا تضعف أسلحتنا. هذا هو نصيب جيلنا. هذا خيارنا - أن نكون مستعدين ومسلحين، قساة خشنين - وإلا سقط السيف من يدنا وقصرت أعمارنا.

إن روى الشاب الذى رحل من تل أبيب ليبنى بيته عند بوبات غزة ليكون طليعة لشعبه - أعمى النور فى قلبه بصره، فلم ير وميض السيف. أصم الحنين للسلام أذنيه ولم يسمع صوت القاتل يترصده. وأثبتت بوابات غزة أنها ثقيلة على كتفيه، وتغلبت عليه.

والكلمة حزينة ولكنها ليست مأساوية، وإنما قدرية، وهى ترى أن الإسرائيلى هو الضحية، وأن العرب هم المعتدون. ولكن مهما كان الأمر فقد ساد بين الإسرائيليين اصطلاح «آين بريرا»، أى لا خيار، أى أن على المستوطنين الصهاينة أن يحاربوا - يحاربوا دائمًا - يحاربوا أبدًا ضد عدو لم يهدأ له بال، لا فى عام ١٩٤٩ ولا فى عام ١٩٥٩ ولا فى عام ١٩٩٩.

وفى هذا الإطار لاحظ الكاتب الإسرائيلى بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب الذين يخدمون فى الجيش يشعرون أن أهلهم يقدمون قربانًا على مذبح الدولة، هذا الوثن الأعظم، الذى شبهه أحد الحاخامات المعادين للصهيونية، بأنه مثل العجل الذهبى، فهى - كما قال الشاعر - تضحية علمانية لإسحق (المقابل التوراتى لسيدنا إسماعيل). ولنتخيل سيدنا إبراهيم يقوم بذبح ابنه، ولكنه لا يؤمن بإله.

وقد تحدث الشاعر حاييم جورى بمرارة عن أن كل إسرائيلى يولد «وفى داخله السكين الذى سيذبحه» ثم أضاف إن تراب إسرائيل لا يرتوى، «فهو يطالب بالمزيد من المدافن وصناديق الموتى». ومرة تبدو الدولة الصهيونية مثل الوثن الأصم المتعطش للدماء.

إن الإحساس بالضياع قد تعمق فى الإنسان الإسرائيلى لا بسبب «تراثه الصهيونى» وإنما بسبب وضعه الاستيطانى، وهو وضع أودى به وأدخله فى حروب مستمرة. انظر على سبيل المثال لأغنية مائير باناى، وهى أغنية جميلة حزينة تعبِّر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك:

كلهم ذاهبون إلى مكان ما،
يرنون للمستقبل العذب،
أما أنا، فأستيقظ فى الصباح
وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطئ،
الحافلة مليئة بالدخان،
وعجوزان،
والكمسارى،
وهناك كتابة على حائط أسمنتى:
ماذا حدث للدولة؟
انظر إلى الدولة وانظر إلى الأسمنت!
تغنّي الطيور «صباح الخير»
لعله يمكننى أن أطير معها بعيدًا، ولا أسقط.

إن الأغنية تعبر عن الإفلاس التام عن عبث المحاولة.

ولا شك في أن الهاجس الأمنى والإحساس بالقدرية وخيبة الأمل قد تعمق بعد انتفاضة الأقصى والاستقلال. ألم تكن نقطة الانطلاق الصهيونية هي أن إسرائيل «أرض بلا شعب»، فما بال هؤلاء الرجال والأطفال والنساء والشيوخ يلقون بالحجارة، بل ويطلقون النار، عليهم، ألم يكن من المفروض أن يكونوا غائبين؟

□□□

هل ستنهار إسرائيل من الداخل؟

هل ستنهار إسرائيل من الداخل من تلقاء نفسها، بسبب أزمتها وتناقضاتها الداخلية الحادة؟ كثيرًا ما يُطرح هذا السؤال، وللإجابة على هذا السؤال سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني والتي تبين معدلات التآكُل الداخلي. من المعروف أن مؤسسة الكيبوتس كانت هي العمود الفقري للتجمع الصهيوني. فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة بل والثقافية كانوا من خريجيها (حتى عام ١٩٧٧). ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغيُّر طابعه العام، بل وفقد شيئًا من طابعه الجماعي العسكري. وقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢ يناير ٢٠٠٠) ما يلي:

أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطي المخدرات الخفيفة في مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات حيث قام ٢٣,٥٪ من أبناء الكيبوتس ممن تراوحت أعمارهم بين ١٨ - ٣٠ سنة بتعاطي مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨ مقابل ١١,٤٪ تعاطوا الحشيش والماريجوانا خلال عامي ١٩٩٢ - ١٩٩٣. وكان البحث قد أجرى في ٢٢ كيبوتسًا وتشمل ٦٦٢ فردًا بناءً على طلب من هيئة مكافحة المخدرات.

وماذا عن المجتمع الإسرائيلى ككل؟ أشارت معطيات جديدة نُشرت فى تل أبيب إلى تفاقم ظاهرتى معاقرة الخمر وتعاطى المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيه ٢٠٠٠) أن استطلاعًا خاصًا أجرته وزارة العمل والرفاه الاجتماعى الإسرائيلية لحسابها مؤخرًا أظهر أن ٣٧٪ من تلاميذ صفوف العاشر فى المدارس الإسرائيلية معتادون على تناول الخمر وأن ٨٪ من التلاميذ المعتادين على «الشرب» أبلغوا أنهم يستهلكون مرارًا فى المساء الواحد ستة كئوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيت صادرة عن «مجلس سلامة الطفل فى إسرائيل» أن ارتفاعًا بنسبة ٣٠٪ قد سُجل خلال عام ١٩٩٩ على عدد الشباب الإسرائيليين القاصرين الذين وُجهت إليهم تهمة الإتجار بالمخدرات.. حيث قُدِّم فى عام ١٩٩٨ ما مجموعة ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتى، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة فى عام ١٩٩٩ إلى ٥٥٦ لائحة اتهام.

والحياة العائلية فى التجمع الصهيونى فى حالة تأكُل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير ٢٠٠٠) أن من بين كل ٣ حالات زواج يكون مصير حالة واحدة منها الطلاق. وقد طرأت زيادة بنسبة ١٥٪ فى عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠. واستمرت هذه الزيادة أيضًا خلال السنة الميلادية الماضية حيث سُجلت زيادة بنسبة ١٪ فى عدد حالات الطلاق (نحو ٨,٦٠٤ حالات). وتتصدر منطقة تل أبيب «قائمة الطلاق» حيث وقعت بها ٣,٠١٦ حالة طلاق عام ١٩٩٩ بزيادة قدرها ٢١٪ مقابل عام ١٩٩٨.

وقد ذكر معلق هاآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠ أن عدد السيدات اللاتى أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مائة حالة إنجاب فى السبعينات إلى ١,٨ لكل مائة حالة إنجاب فى عام ١٩٩٤. وفى نفس الشهر أشارت جريدة يديعوت أحرونوت إلى أنه قد طرأ زيادة بنسبة ٥٠٪ فى عدد حالات الاعتداء الجنسى على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥٪ فى عدد حالات الجرائم الجنسية التى يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة فى عام ١٩٩٩.

والتآكل الأسرى عادةً ما يؤدى إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب. وبالفعل ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف فى كل المجالات وجميع المراحل السنية وكل شرائح السكان. وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظى والبدنى. ويعتبر العنف البدنى هو الأكثر ذيوعًا بين تلاميذ المدارس الابتدائية بينما يقل معدله مع اقترابهم لسن البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هى الأكثر انتشارًا وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هينًا.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من ٥٠٪ من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين فى العنف بصورة ما. وأكثر من ٦٠٪ من التلاميذ اشتركوا فى أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالى ١٥٪ : ٢٠٪ فى مستويات أكثر خطورة من العنف وأصيب حوالى ١٤٪ خلال مشاجرات وكانوا فى حاجة إلى علاج طبى.

وفى محاولة تفسير ظاهرة العنف نُشر مقال فى جريدة هاتسوفيه (٧ أبريل ٢٠٠٠) بعنوان «فناء مدرسة أم ساحة قتال؟» يبين أن العنف بين الشباب لم يأت من فراغ بل إنه تغذى من العنف ذى المستوى المرتفع

في مجتمع البالغين وبصفة خاصة من اللامبـالاة تجـاه مظـاهر العنـف فـى السلوك الإسرائيلى.

ثم نأتى أخيرًا للشذوذ الجنسى، ورغم أن اليهودية الحاخامية التقليدية تحرِّمه، إلا أن معظـم المذاهـب الدينيـة اليهوديـة المعـاصرة مثـل اليهوديـة الإصلاحيـة والمحافظـة، قـد تقبلتــه وقننـت لــه بـل أنشـأت مـدارس دينية خاصة لتخريج الحاخامات الشواذ جنسيًا. وقد أبرم حاخام إصلاحى عقد زواج بين رجلين أمام حـائط المبكـى عـام ١٩٩٨، وكـان يُعـدُّ انتصـارًا لحرية الرأى.

والشذوذ الجنسى أصبح مقبولاً فى المجتمع الإسرائيلى. خذ على سبيل المثال بينيك، الذى يلبس دبلة الزواج الآن، فهو سيتزوج من صديقـه العـام المقبـل. يقـول بينيـك (كمـا جـاء فـى ملحـق صحيفـة هـاآرتس ١٤ أبريــل ٢٠٠٠): وضع الشواذ جنسيًا فى إسرائيل الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية وهو من أفضـل الأوضـاع علـى مستوى العـالم. نحـن متسـاوون تقريبًا مع الدول «المتقدمة» فى العالم مثل: الدنمارك وهولنـدا، فـلا يوجـد فى إسرائيل قانون يمنـع أن تكـون شـاذًا جنسـيًا، ولا يوجـد قـانون يمنـع اللواط. بالعكس هناك قانون المساواة فى فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويروع أصحاب الأعمال عـن التميـيز ضـد الشـواذ. فـى كـل مـرة يحـاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا. وبالإضافة إلى ذلك نحـن فـى طريقنا نحو إصدار قوانين التبنى التى تسمح للشـواذ بتبنـى الأطفـال. وهـو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقـوق الإنسـان سـينجحون خلال عشر سنوات فى أن يكون التشريع الإسرائيلى عادلاً تمامًا، بمـا فـى ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ.

ولعل تقبل المجتمـع الإسـرائيلى للشـذوذ الجنسـى يظـهر فـى أن عـدد السحاقيات فى إسرائيل اللاتى أنجبن أطفالاً (مـن خـلال عمليـات معمليـة

مختلفة) هو الأعلى فى العالم (هاآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠)، ولعل هذا يعود إلى محاولة الجيب الاستيطانى تجاوز أزمته الديموجرافية.

والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذى طرحناه فى بداية المقال، هل هذا يعنى أن المجتمع الإسرائيلى سينهار من الداخل، كما يمنى البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفى القاطع للأسباب التالية:

١ - مقومات حياة التجمع الصهيونى لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليًا وعسكريًا وسياسيًا من الولايات المتحدة والعالم الغربى والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢ - يتسم المجتمع الإسرائيلى بالشفافية وبالتالى حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدى لها أو التكيف معها.

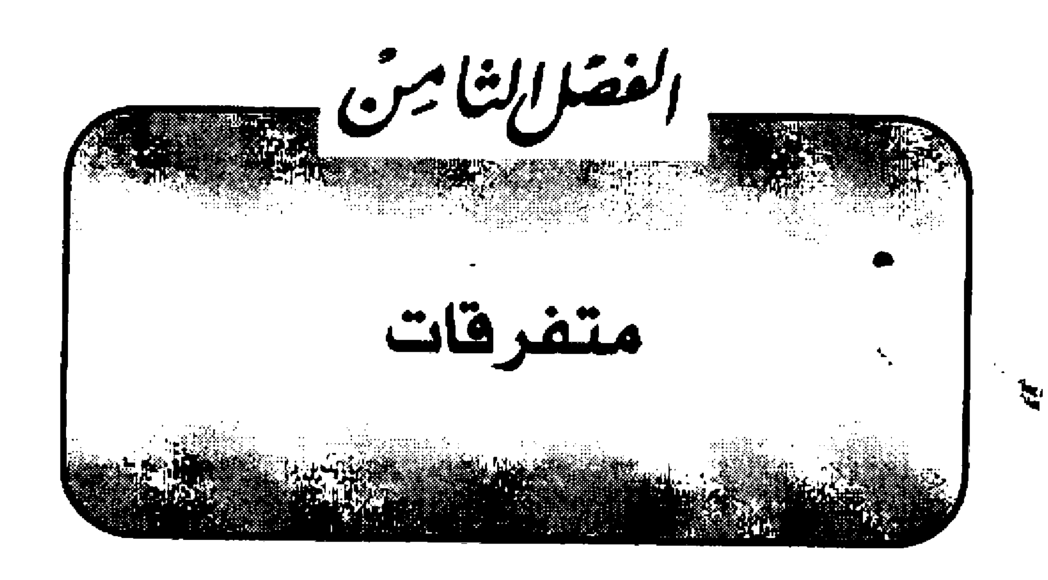
٣ - توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان فى التجمع الصهيونى أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤ - ثبت أن كثيرًا من المجتمعات يمكنها أن تعيش فى حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكومبيوتر) يساهم فى هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشريًا أن يستمر فى العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التى تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذًا جنسيًا أو تعاطى الخمور والمخدرات فى الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطانى لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومى المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تأكل فى التجمع الصهيونى هى عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس

قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها فـي حـد ذاتـها لا يمكنـها أن تـودى بـه أو أن تؤدى إلى انهياره.

يجب ألا تخدعنا الأرقـام الصمـاء وألا نتصـور أنـها الحقيقـة، فالأرقـام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهى ثمرة اجتهاد إنسـانى، وليـس مجرد تلقٍ ببغائى. واجتهادنا فى قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.


الفصل الثامن
متفرقات

هتلر: مؤسس الدولة الصهيونية؟

الحضارة الغربية، حضارة داروينية تمجِّد القوة وتجعلها هي الآلية الوحيدة لحسم الصراعات، كما تجعل مصلحتها معيارًا وحيدًا أوحد للحكم على الظواهر. وهي حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا باعتباره مادة استعمالية، وهذا هو جوهر كل من النازية والصهيونية. فإذا كانت النازية قد حوَّلت اليهود وغيرْهم إلى مادة استعمالية، فإن الصهاينة قد فعلوا ذلك مع الفلسطينيين. وإذا كان النازيون قد فرضوا رؤيتهم على الواقع بقوة السلاح، فإن الصهاينة لم يتوانوا عن استخدام نفس المنهج.

ويبدو أن الحضارة الغربية غير قادرة على مواجهة نفسها وعلى مواجهة هذه الحقيقة، ولذا فهم لا يكفُّون عن الثرثرة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق القطط والكلاب.. إلخ. أما الإبادة النازية ليهود أوربا، فبدلاً من رؤيتها على أنها ظاهرة متكررة في الحضارة الغربية الحديثة (التي بدأت بإبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية واستمرت حتى العصر الحديث في فيتنام والبوسنة والشيشان، مرورًا بإبادة السكان الأصليين في أستراليا ونيوزيلندا وإبادة الملايين في إفريقيا). نقول بدلاً من أن تدرك الحضارة الغربية الإبادة النازية باعتبارها ظاهرة متكررة، فإنها تصنِّفها على أنها حدثٌ فريدٌ، ثم تستخدمها كستار من دخان لتخبئة ما يدور من مذابح في عالمنا.

لكن الأعمال الأدبية - في كثير من الأحيان - لا تعكس الواقع، وإنما تصوِّره تصويرًا نقديًا. فأدب القرن التاسع عشر (بما في ذلك الأدب

الرومانسى) كُتب إبَّان الثورة الصناعية وسيادة المفاهيم النفعية المادية، ومع هذا وضع الأدباء نُصب أعينهم الهجوم على وحشية الثورة الصناعية ولا إنسانية المفاهيم النفعية المادية.

ونفس القول ينطبق على الرواية الخيالية التى كتبها عالم اللغة البريطانى اليهودى جورج ستانير (بعنوان نقل أ. هـ. إلى سان كريستوبال)، فهى رواية تاريخية خيالية. تدور حول حدث خيالى: العُثور على هتلر حيًا فى إحدى غابات الأمازون، والقبض عليه من قِبَل بعض اليهود الذين اقتفوا أثَرَه، والذين قرروا محاكمته. والمحاكمة دون شك خيالية، ولكنها مع هذا تصل إلى كبد الحقيقة، إذ يبيِّن هتلر العلاقة الوثيقة بين النَّازية والصهيونية، مشيرًا إلى أحد المفاهيم العنصرية الأساسية التى تبناها النازيون، أى مفهوم التفاوت بين الأعراق والجنس الأرقى، مخاطبًا اليهود الذين يقومون بمحاكمته:

«يجب أن تفهموا أننى لم أختر شيئًا. لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر، الذى كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى. أكاذيب. أكاذيب.. لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك. قوة تعاليمكم الخفية. تعاليمكم أنتم. شعب مختار. شعب اختاره الله لنفسه. العِرق الوحيد المختار على وجه الأرض.. وجعله الإله فريدًا دون البشر».

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم، ويشير خصوصًا إلى بطولات يوشع ابن نون، وهو بطل قومى/ دينى يتواتر ذكره فى الكتابات الصهيونية، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها كليةً وأباد سكانها، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الحيوانات، هى الأخرى أبيدت بحد السيف. ولذا فهتلر يرى أن كتاب اليهود المقدَّس تفوح منه رائحة الدم. ثم يُضيف قائلاً: «لقد تعلمت أن أى شعب لابد أن يكون مختارًا كى يُحقق مصيره، وألا يكون هناك أى شعب آخر فى نفس مرتبته: الأمة الحقيقية سردفين، جسد واحد

خلقه الله بإرادته، وخلق دمها الطاهر، خلقها سر الإرادة والاختيار. أن تهزم أرضها الموعودة وتستبعد كل من يقف في طريقها. وأن تعلن نفسها خالدة أبدية».

والمصطلح النازى الذى يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيونى، فكلاهما يأخذ المفاهيم الدينية ثم يقوم بعلمنتها وتجنيد الجماهير من خلالها، وبذلك تحوَّل مفهوم الشعب المختار إلى مفهوم الشعب العضوى (فولك) الذى يرتبط أعضاؤه بأرضهم وببعضهم البعض برباط عضوى أزلى، هو «روح الشعب» أو «المصير الأزلى» أو «إله الشعب» إلى آخر هذه المطلقات والغيبيات العلمانية. ثم يستطرد هتلر قائلاً: «لم تكن عنصريتى سوى تقليد هزلى لعنصريتكم أنتم، تقليد هزيل. ماذا يكون الرايخ الذى سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية؟».

إن هتلر بمرافعته هذه يبين أن فكرة الشعب المختار عرقيًا، هى فكرة غربية قد يكون لها جذور يهودية، ولكنها أصبحت جزءًا من التراث الغربى. وقد قال هتلر فى إحدى خطبه (الحقيقية) إنه لا يوجد سوى شعب مختار واحد، وهو الشعب الألمانى. وقد بيَّن أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، ألفريد وزنبرج، أثناء محاكمته فى نورمبرج أن نظرية التفاوت بين الأعراق هى جزء لا يتجزأ من الفكر الغربى. فأشار إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) فى كتاب عن الاستعمارى الإنجليزى كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكى الأنثروبولوجى ماديسون جرانت والعالم الفرنسى لابوج، وأن رؤيته العرقية هى نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. ومن المعروف تاريخيًا أن هتلر تشرَّب كثيرًا من آرائه من الدراسات الإمبريالية/ العنصرية التى انتشرت فى أوربا آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالى الغربى.

ولكن الأهم من هذا أن هتلر فى مرافعته الخيالية وضع الإبادة النازية فى سياق الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، ولذا لا يستحق الحياة): «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك فى الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعًا أو من مرض الزهرى حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبو علىّ يا سادة. أم يجب علىّ أن أذكركم؟ عشرون مليونًا. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد فى المهد صبيا؟ فى لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفًا وعددًا.

وما لم يذكره هتلر فى دفاعه عن نفسه فى المحاكمة الخيالية وقائع الإبادة المختلفة فى التاريخ الغربى الحديث. ولكننا نعرف أنه فى أحاديثه الخاصة (الحقيقية) كثيرًا ما كان يبدى إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. وقد صرح هتلر فى إحدى خطبه أن الحرب التى تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة فى شرق أوربا لا تختلف كثيرًا عن كفاح البيض فى أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها «أرضًا عذراء» أو «صحراء مهجورة»، تمامًا كما كان يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين باعتبارها «صحراء ومستنقعات».

بعد أن وضع هتلر الإبادة النازية ليهود أوربا فى سياقها الحضارى الغربى العريض، يضعها فى سياق ألمانى يهودى: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها - التعاون بين الصهاينة والنازيين - الصهيونية فى علاقتها النظرية والفعلية مع النازية! فكشفت

عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة. يقول هتلر فى مرافعته الخيالية فى نفس الرواية المشار إليها.

«هذا الكتاب الغريب المسمى الدولة اليهودية (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيونى) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية)، اللغة، الأفكار وحتى النبرة نفسها. إنى أتفق معكم أنه كتاب ذكى صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من الذى خلق إسرائيل فى واقع الأمر، هرتزل أم أنا؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل.. دون مذبحة الإبادة التى قمت بها. إن مذبحتى هى التى أعطتكم شجاعة الظلم التى جعلتكم تطردون العربى من منزله وحقله لأنه كان يقف فى طريقكم. هذ هو الذى جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذين قمتم بطردهم يجلسون يكاد يأكلهم العفن فى معسكرات اللاجئين، على بُعد أقل من عشرة أميال [من وطنهم]. مدفونين أحياء فى بؤسهم».

ولم يذكر الروائى، على لسان هتلر، معاهدة الهعفراه بين النازيين والصهاينة التى أنقذت الجيب الصهيونى من الهلاك، إذ إنه كان يعانى من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق رءوس الأموال، الأمر الذى تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طرق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية). ولهذا قال أحد المعلقين، إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أى منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أى من حول النظرية إلى واقع سياسى).

□□□

النازيون الجدد

نشرت جريدة الاتحاد فى عددها الصادر فى ٥ أبريل ٢٠٠١ تصريحات الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام والثقافة، بخصوص الوضع

فى الأراضى المحتلة، فقد انتقد بشدة الدعم غير المحدود الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، مما يساعدها على الاستمرار فى عملية القمع والإرهاب المستمرة التى تمارسها ضد الفلسطينيين. وقد وصف سموه الصهاينة بالنازيين الجدد، وهو وصف - فى تصورى - جرئ ودقيق. فنقط التشابه بين النازيين والصهاينة كثيرة.

ومع هذا أحاط الصهاينة الإبادة النازية ليهود أوربا (التى يطلقون عليها الهورلوكوست) بالقداسة. كما أنهم يحاولون احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب. ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيونى أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيرًا عن نمط تاريخى عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تمامًا محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين، على سبيل المثال، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض، أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم. ولذا كمّمت أفواه البولنديين الذين عانوا من ويلات الحكم النازى أكثر من أية جماعة إنسانية أخرى. كما أن عدد ما فقدوا من الضحايا يفوق عدد الضحايا اليهود.

لكن المفارقة الكبرى أن كثيرًا من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» فى كثير من السياقات، فدعاة السلام من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» للإشارة لدعاة الحرب من المستوطنين، بل إن بعضهم يشير إلى جميع المستوطنين فى الضفة الغربية باعتبارهم نازيين. ويقوم اليهود الشرقيون (السفارد) بالإشارة إلى اليهود الغربيين بأنهم «أشكى نازى» أى أشكنازى. ونشرت جريدة يديعوت أحرونوت فى عددها الصادر فى ٣ مايو ٢٠٠٠ مقالاً أشار إلى أن أحد طلبة قسم عِلْم

النفس بجامعة تل أبيب يُدعى آدم جوفرى كتب مقالاً شبَّه اليهود المتدينين بالنازيين.

وكثير من الصهاينة الذين يسمون بالمعتدلين يشبِّه الصهاينة المتطرفين بأنهم نازيون، فما يكل إيتان (عضو الكنيست الإسرائيلى) أشار إلى وجود تشابه كبير بين القوانين التى يقترح مائير كاهانا تطبيقها على العرب فى الدولة الصهيونية وقوانين نورمبرج النازية التى طُبِّقت على اليهود.

ومؤخرًا (ملحق هآرتس ٢٨ أبريل ٢٠٠٠) وصف الصحفى أمنون دنكنر أحد نشطاء حركة كاخ (إيتامار بن جبير) بأنه نازى صغير. فقام هذا الأخير برفع دعوة قذف ضد دنكنر الذى طلب من البروفسور موشيه تسيرمان (المتخصص فى التاريخ الألمانى) أن يقوم بإعداد وثيقة تعقد مقارنة شاملة بين أيديولوجية جماعة كاخ (التى أسسها كاهانا) والأيديولوجية النازية. وقد قام البروفسور بالفعل بإعداد الوثيقة وأورد فيها نصًّا منشورًا وزعته جماعة كاخ فى أعقاب مذبحة صابرا وشاتيلا ورد فيه ما يلى: «حربنا ليست حربًا ضد منظمة التحرير الفلسطينية فقط ولكنها ضد كل الشعب الفلسطينى. وهى حرب مقدسة تقتضى الإبادة لكل هذا الشعب!». وقد أشار البروفسور إلى أن حركة كاهانا تستخدم عبارات مثل «الشياطين» و «الصراصير» و «الحشرات» و «الأفاعى» و «السرطانات» و «الطفيليين» للإشارة إلى العرب، وهى عبارات استخدم النازيون بعضها للإشارة لليهود.

وقد بيَّن البروفسور أن كلاً من النازيين والمتطرفين اليهود يدعون إلى طرد الأجانب «وتطهير البلاد منهم» كما يدعون إلى تحريم الزواج المختلط. أما «الأجانب» (العرب فى فلسطين واليهود فى ألمانيا) الذين يبقون داخل حدود الدولة (النازية أو الصهيونية) فلن يُسمح لهم بالإقامة فى الأحياء النقية عنصريًا!

إن كل التفاصيل والوقائع التى أوردناها تهدف إلى توضيح أن ثمة إدراكًا صهيونيًا لوجود جوانب نازية فى بعض الأيديولوجيات الصهيونية مثل أيديولوجية اليهود الأرثوذكس المتطرفين وأيديولوجية جماعة كاخ. وهذا يعنى أنه لا داعى على الإطلاق أن تحصر كلمة «نازى» للإشارة للنازيين الألمان الذين قاموا بإبادة اليهود، وإنما يمكن استخدامها للإشارة لكل من يفكر بطريقة نازية ويسلك سلوكًا نازيًا، ألمانيًا كان أم غير ألمانى.

انطلاقًا من هذا يمكن أن نشير للأيديولوجية الصهيونية ككل باعتبارها أيديولوجية عرقية نازية، فقانون العودة الصهيونى (الذى يعتبره بن جوريون العمود الفقرى للمستوطن الصهيونى) يفتح أبواب إسرائيل على مصراعيه لأى يهودى يود الاستيطان فى أرض فلسطين المحتلة، وينكر هذا الحق الإنسانى البسيط على أى فلسطينى اضطر إلى ترك وطنه تحت تهديد السلاح منذ بضع سنوات. كل هذا بهدف تأسيس دولة يهودية خالصة لا تختلف كثيرًا فى منطلقاتها عن الدولة النازية.

وقد قارن كثير من الكُتّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة النازية. فعلى سبيل المثال، أعرب الأستاذ الإسرائيلي د. كونفيتس - خلال النقاش الذى دار قبل الموافقة على قانون العودة - عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية، ما دام يُجسِّد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس دينى أو عرْقى.

وبعد صدور هذا القانون، حذَّرت جريدة جويش نيوزلتر، فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٥٢، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألمانى يتمتع بمزايا جنسيته، بغض النظر عن المكان الذى يوجد فيه.

وفى مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأىّ يهودى بموجب تعريف قوانين

نورمبرج: أى أن يكون جده يهوديًا. أى أن يكون حاييم كوهين، الذى كان قاضيًا بالمحكمة العليا فى إسرائيل أن «من سخرية الأقدار المريرة أن تُستخدَم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التى روَّج لها النازيون والتى أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضع اليهودى داخل دولة إسرائيل». وهناك، على الأقل، حالة واحدة معروفة، قامت فيها السلطات الدينية فى إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية، للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين.

وإلى جانب قانون العودة هناك عشرات من الممارسات الصهيونية الأخرى ذات الطابع العنصرى الفاقع، الذى يبرر استخدام كلمة «نازى». خذ على سبيل المثال قوانين الصندوق القومى اليهودى التى تنص على أن هذا الصندوق يقدِّم الدعم لليهود ولليهود وحدهم، كما أن أحد بنوده تقرر أنه لا يمكن تأجير أرض يمتلكها الشعب اليهودى لغير اليهود، مما يعنى أن ٩٠٪ من أرض فلسطين المحتلة لا يمكن لغير اليهود (أى العرب) أن يعملوا فيها أو فى المستوطنات الزراعية المقامة عليها أو حتى أن يستأجروا شقة فى عمارة مقامة على هذه الأرض.

ألا يبيِّن هذا أن الصهيونية تستند إلى رؤية نازية تترجم نفسها إلى ممارسات صهيونية، وأن سمو الشيخ عبد الله بن زايد حين وصف الصهاينة بأنهم نازيون جدد قد أصاب عين الحقيقة؟

□□□

تاريخ أول دولة يهودية فى العصر الحديث: كيف تم القضاء عليها

من الحقائق التى تغيب عن الكثيرين ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب بالمشروع الاستعمارى الاستيطانى الغربى. فوجودهم فى فلسطين هو تعبير عن هذا الارتباط وليس عن الارتباط الأزلى بين اليهود وأرض

الميعاد. وتوجد عدة تجارب استيطانية قام بها أعضاء الجماعات اليهودية في جزر أمريكا اللاتينية مرتبطة بما كان يُسمَّى «المثلث اللعين» إذ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع، كالأسلحة والبارود والمشروبات الروحية الرخيصة والحلى، من أوربا إلى الساحل الإفريقي فتفرغها، ثم تحمل العبيد الذين كانوا يُنقلون إلى مزارع السكر في الولايات المتحدة وجزر الكاريبي ويباعون هناك، وكانت السفن الفارغة تحمل المنتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والصمغ والقهوة إلى أوربا، وهكذا. وكان يوجد مثلث آخر لم يكتسب أهمية إلا في منتصف القرن الثامن عشر. فكان تجار نيو إنجلند يرسلون شراب الروم الكحولي إلى إفريقيا ويبادلونه بالعبيد ويبحرون إلى جزر الهند الغربية حيث كانوا يبيعون العبيد ويشترون عسل قصب السكر اللازم لصناعة الروم ثم يتجهون لبلادهم. وقد كانت مزارع السكر ذات أهمية كبرى بالنسبة لاقتصاد هذه الجيوب الاستيطانية. فكان هناك الجيب الاستيطاني في كوراساو وهي إحدى جزر الهند الغربية الهولندية وتقع على مقربة من ساحل فنزويلا. وتعود أهمية كوراساو إلى أنها من التجارب الأولى للجماعات اليهودية الاستيطانية (١٦٥٠) وإلى أنها تندرج في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي الذي بدأ نشاطه في العالم الجديد واستمر في التوسع إلى أن وصل إلى آخر حلقاته في فلسطين في العصر الحديث.

ومن التجارب الاستيطانية الأخرى تجربة الاستيطان في كايان، وهي جزيرة على ساحل أمريكا الجنوبية، توجد بها مدينة تحمل نفس الاسم. وقد حاول بعض الفرنسيين الاستيطان فيها وفشلوا، ثم وصل بعض الهولنديون وأعضاء الجماعة اليهودية (المارانو)، فوجدوا الأرض المزروعة والقلعة المسلحة التي تركها المستوطنون وراءهم، وحصلوا على ميثاق من شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٥٦ يسمح لهم

بالاستيطان. ووصل عدد أكبر من اليهود من البرازيل بعد عدة أعوام ومنحتهم الشركة مزايا وحريات عديدة منها أن تكون أية أرض يضعون يدهم عليها ملكية خالصة لهم. وقد انضم لهم المزيد من أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٦٦٠ من ليجهورن. وازدهرت المستوطنة حتى عام ١٦٦٤، حينما استولى عليها الفرنسيون ورحل اليهود إلى سورينام وجامايكا.

ولكن أهم التجارب الاستيطانية الأولى (من منظور التطورات اللاحقة) تجربة الاستيطان في سورينام التي شهدت ظهور أول جيب يهودي استيطاني ابتداءً من عام ١٦٣٩. (سورينام جمهورية مستقلة، كانت تدعى في الماضي «جيانا الهولندية» حيث كانت تابعة لهولندا. وهي تقع، في أمريكا الجنوبية، بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، ويحدها من الشمال المحيط الأطلنطي).

وكان من أهم مراكز اليهود في سورينام مستوطنة يودين سافانا، ومعناها «سافاناه اليهود»، التي تأسست عام ١٦٧٠ والتي كانت تقع على بعد عشرة أميال من باراماريبو أكبر مدن سورينام في بريزدنتس أيلاند «جزيرة بريزيدنت أو الرئيس». كانت الجماعة الاستيطانية اليهودية في هذه الجزيرة شبه مستقلة، إذ أسس أعضاؤها عددًا من المزارع هناك وسط الغابات. وقد استخدموا العبيد السود في شق الطرق وإزالة الأعشاب وفي العمل في المزارع، كما أسسوا مدينة محاطة بالطرق الجديدة. وقد بلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩، معظمهم من العبيد المجلوبين من إفريقيا.

إلا أن أعدادًا كبيرة منهم كانت تهرب من المستوطنين إلى الغابات وتتحد مع السكان الأصليين من الهنود الذين اقتُلعوا من أرضهم، ثم تقوم

بغارات على المزارع. وكان أصحاب المزارع يستجلبون المزيد من العبيد ليحلوا محل الهاربين. ولكن هؤلاء كانوا ينضمون بدورهم إلى الهاربين في الغابات. وقد تزايد عدد الفارين وأصبحوا يشكلون تهديدًا حقيقيًا للمستوطنين اليهود البيض الذين صمدوا بعض الوقت ضد العبيد الثائرين، فكوّنوا ميليشيا عسكرية وجددوا الحملات ضد الثوار. ولكن الإرهاق من الحرب ومن الجهد المبذول لإحباط ثورات العبيد ابتداءً من ١٦٩٢، وانتشار مرض الملاريا، أديا في نهاية الأمر إلى انتصار السود عليهم عام ١٧٧٤. ثم شب حريق فيما تبقى، فلم يبق من آثار اليهود سوى شواهد قبور عليها كتابات بالعبرية.

وثمة نقاط تشابه عديدة بين تجربة المستوطنين اليهود في سافاناه اليهود والمستوطنين الصهاينة في فلسطين، من بينها أن كلاً من المستوطنين اليهود في فلسطين وسافاناه اليهود تم توطينهم خارج أوربا تحت رعاية أكثر من دولة أوربية واحدة: إنجلترا ثم هولندا في حالة سورينام، وإنجلترا ثم الولايات المتحدة في حالة فلسطين، وأنه تم توطينهم ليقوموا على خدمة المصالح الإمبريالية الغربية. كما أن كلتا الجماعتين الاستيطانيتين كانتا منقسمتين وبحدة إلى سفارد وأشكناز يتصارعون فيما بينهم.

ولكن أهم السمات من منظور اللحظة الحالية أن كلتا الجماعتين كانتا مرفوضتين من قبَل أعضاء المجتمع المُستهدَف استغلاله: العبيد السود المُستجلَبين والسكان المحليين في سورينام، والفلسطينيين العرب في فلسطين. وقد انتصر السود على سافاناه اليهود، أما في فلسطين فإن المعركة مازالت دائرة بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال الإسرائيلي. وإن كان من الممكن القول بأن انتفاضة الأقصى قد قوّضت تمامًا أحلام الصهاينة

بإمكانية الحفاظ على الأمـر الواقـع : مسـتوطنون اغتصبـوا الأرض، وسـكان أصليون مغلوبون على أمرهم (خاصـةً لأنـهـا جـاءت فـى أعقـاب انسـحاب الإسرائيليين المُنزَّل مـن جنـوب لبنـان). وفـى تصـورى أن تقويـض أحـلام المستوطنين هـو مؤشـر علـى بدايـة النهايـة، فـالجيوب الاسـتيطانية عـادةً مبنية على أسـاطير عنصريـة يصدقـها المغتصـب إلى أن يفيـق حـين يسـمع زمجرة المستضعفين، وحـين تصـل أحجـارهم إلى رأسـه ويدخـل رصاصـهم صدره وقلبه.

□□□

الحاخام القائد:

الجاخام عوفاديا يوسـف شـخصية غريبـة الأطـوار تعـبِّر عـن تناقضـات التجمع الصهيوني. فمنذ عدة أعوام أصدر فتوى دينية شـهيرة حـول تـأييد الانسحاب الإسرائيلى من أراض عربية محتلة حقنًا للدمـاء وصونـًا لـلأرواح اليهودية. وقد استدعى الحاخامُ مفهومًا دينيًا يهوديًا هو «بيكواح نيفيـش» أى «فداء النفس». يعنى أن النفس اليهودية أغلـى مـن الأرض (اليهوديـة) ولا يصح التضحية بها.

ولكن هذا الحاخام نفسه صرح فى موعظته الأسـبوعية فـى عيـد الفصـح العبرى هذا العام أن «الإله يجب أن يدمـر العـرب» وطلـب مـن أتباعـه أن يكرروا وراءه عبارة «صب غضبك على الأغيار» كما طلب من الإله «أن يـرد الصاع صاعين إلى العرب وأن يقطع نسلهم ويبيدهم ويذلهم ويمحو أثرهـم». وفى مناسبة أخرى صرح بأن العرب «أنجاس وأفاعٍ» وأن «الإلـه ينـدم كـل يوم على أنه خلق ذرية إسماعيل».

وقد حاول بعض المتحدثين الرسميين الإسرائيليين التخفيـف مـن حـدة وقع هذا التصريحات العنصرية. فقالوا إن الحاخام يقصد «المخربين» وليس

العرب على وجه العموم. وكما قال الحاخام ميخائيل ملكيئور (من حزب ميماد الديني «المعتدل» والمؤتلف مع حزب العمل في قائمة إسرائيل واجب) «ثمة وصية في الدين اليهودي تقول لنا بعدم إدارة الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن. ومن هنا فليس المطلوب منا أن نكون إنسانيين مع الذين يريدون المس بنا تنفيذًا للوصية القائلة: الذي يأتي لقتلك بكر بقتله».

ولا يهمنا في هذا السياق اتهام الحاخام يوسف بالعنصرية أو تبرئته من التهمة أو التخفيف منها، وإنما يهمنا أن نفسر سر هذا التحول، حتى نفهم حركيات التجمع الصهيوني. ولفهم هذا لابد وأن نضع اللعنات التي صبها عوفاديا يوسف على العرب في سياق أوسع من اللعنات الأخرى!

قد أعلن الحاخام في فبراير عام ١٩٩٩ أن كان قضاة المحكمة العليا في إسرائيل نجسون يرتكبون الفاحشة (معاريف ١٩ مارس ٢٠٠٠). كما صب لعناته على النساء العلمانيات اللائي لا يمارسن شعائر الطهارة وبالتالي يلدن أطفالاً نجسين. وفي عام ١٩٩٧ صرح بأن «الرجل يجب ألا يسير بين امرأتين أو حمارين أو جملين. لماذا؟ لأن الناس لا يعرون التوراة أي التفات، وكل من يسير بالقرب منهم يصبح مثلهن». وفي ٣ مارس ٢٠٠٠ في إحدى مواعظه قال الحاخام إن يوسي ساريد (وهو من أهم شخصيات اليسار العلماني) ملعون، تمامًا مثل كل أعداء اليهود وأن الإله سيجتثه من جذوره. وقد أدلى الحاخام بتصريحه هذا قبل عيد البوريم حيث يتم شنق تمثال هامان، الوزير الفارسي، الذي حاول أن يبيد اليهود.

ولم تسلم المؤسسة الدينية الإشكنازية من هجمات الحاخام عوفاديا يوسف، فحينما سُئل عن أقرب العقائد الدينية إلى اليهودية قال حركة

حبد، وهي حركة دينية إشكنازية يهودية أرثوذكسية، وهو بتعليقه هذا ينكر عليها صفة اليهودية.

الهجوم إذن ليس ضد العرب وحدهم. وإنما ضد حزمة من المؤسسات والعقائد والجماعات البشرية، فما هي دوافع الحاخام؟ ابتداءً يجب أن نشير إلى أن الحقيقة الأساسية في حياة الحاخام عوفاديا يوسف هي أنه مؤسس حزب شاس وزعيمه الروحي، وهو حزب ديني/ قومي سفاردي. والحاخام من مواليد العراق (١٩٢٠)، وكان رئيس المحكمة الدينية اليهودي في القاهرة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، والحاخام السفاردي الرئيسي لمدينة تل أبيب (١٩٤٥ - ١٩٧٢)، والحاخام السفاردي الرئيسي في إسرائيل (١٩٧٣ - ١٩٨٣).

وبزوغ نجمه هو انعكاس لعدم تجانس التجمع الصهيوني، فهذا التجمع منقسم على نفسه عدة انقسامات: فهناك الانقسام الأكبر وهو الانقسام الديني العلماني، ولكن هناك انقسام آخر لا يقل عنه أهمية هو الانقسام الغربي الشرقي. والجدول التالي الخاص بالتقسيم على أساس ديني يبين مدى تداخل الأمور في إسرائيل:

٣,٩٪	أرثوذكس متطرفون (حاريدي)
١١,٠٪	متدينون (داتي)
٢٦,٨٪	تقليدي (ماسورتي)
٢٣,٣٪	علماني يحتفظ ببعض التقاليد (حيلوني حاميكاييم ماسورت)
٣٠,٣٪	علماني (حيلوني)
٤,٤٪	معادي للدين

ونرجو ملاحظة أن الماسورتي (التقليدى) ليس متدينًا بـالمعنى المعـروف، وإنمـا هـو مـن يـرى ضـرورة الحفـاظ علـى التقـاليد، وليـس بـالضرورة مـن يؤمن بالعقيدة.

وتزداد الصورة تركيبًا إن صنفنا أعضاء التجمـع الصـهيونى علـى أسـاس أصولهم العرقية. وإلى جانب هــذه الانقسـامات والصراعـات يوجـد الصـراع الأكبر، وهو الصراع العربى الإسرائيلي. ورغم تأثيره العميق على الصراعات الأخرى إلا أن هذا ليس هو موضوعنا في هذا المقال.

وقد أسست الدولة الصهيونية مجموعة من يهود شرق أوربا الذين فقـدوا إيمانهم الديني وأصبحوا ملاحدة كانوا يرون أن الصهيونية إنمـا هـى ثـورة على العقيدة اليهودية. فالرواد الصهاينة أو الآباء الصهاينة كـانوا لا يكنـون أى حب أو احترام للعقـائد والتقـاليد اليهوديـة، وكـانوا يـرون أن دولتـهم العبرية تشكل نهاية للشخصية اليهودية التقليدية وبداية للشخصية العبرية التى تصاغ على نمط الشخصية القوميـة العلمانيـة فـى الغـرب. وعلـى هـذا الأساس تم تأسيس الدولة الصهيونيـة، ولكـن الدولـة الصهيونيـة مـع هـذا ادعت أنها «دولة يهودية» تستمد شرعيتها مـن كونـها يهوديـة. ولـذا مـع دخول الفكر العلماني مرحلة الأزمـة علـى المستوى العـالى وعلـى مستوى إسرائيل بدأت المؤسسة الدينية في إسرائيل تطـرح نفسـها كبديـل. فعلـت ذلـك علـى اسـتحياء فـى بـادئ الأمـر، ثـم مـع تصـاعد أزمـة الصهيونيـة العلمانية، ازدادت ثقة بنفسها وازدادت نبرتها حدة.

وتطالب المؤسسـة الدينية أن تصبح الدولـة اليهوديـة «يهوديـة» بـالمعنى الديني وليس بالمعنى الإثني، بمعنى أن يهودية هذه الدولة يجب ألا تكمـن في مجموعة من الرموز القومية الدينية (مثل النشـيد القومـى وأنـواع معينـة مـن الطعـام.. إلخ) وإنمـا يجـب أن تتبـدى فـى مجموعـة مـن الممارسـات والشعائر الدينية الحقيقية مثل إقامة شعائر السبت (التـى يـرى العلمـانيون

أنها قاسية للغاية وتحرمهم من عطلة نهاية الأسبوع) واتباع قوانين الكاشروت (أى الطعام المباح شرعًا، وهى كثيرة ومركبة وصعبة).

وتوجد قضايا أخرى عديدة قد نفرد لها مقالاً مستقلاً فى المستقبل. ولكن إلى جانب الصراع الدينى العلمانى. هناك الصراع الصفاردى (الشرقى) الإشكنازى (الغربى). فمن المعروف أن التقاليد السفاردية الدينية (المنهاج السفارى) كان له اليد الطولى فى فلسطين، وكان على الحاخامات الإشكناز أن ينضموا إلى الجماعة الدينية السفاردية التى كان يترأسها ريشون لتسيون (الأول فى صهيون) وهو حاخام سفاردى، كان يختاره المجلس الحاخامى ثم توافق عليه السلطة العثمانية.

ولكن ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر وتزايد النفوذ الغربى بدأت تظهر جماعات إشكنازية مستقلة، تمولها الجماعات اليهودية فى أوربا وبمساعدة قناصل الدول الغربية، خاصةً روسيا القيصرية، التى كانت تبذل قصارى جهدها أن تتدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية.

وبدأ سلطان الإشكناز يتزايد حتى عام ١٩١١ حينما وافق الحاخام السفاردى بن زيون أوزايل أن يتقاسم السلطة الدينية مع الحاخام يتسحاق كوك. ولكن ما حدث أن الحاخام كوك، وكان صهيونيًا حتى النخاع، نجح فى الاستئثار بها تقريبًا، حتى سادت التقاليد الإشكنازية، ووجد الحاخام السفاردى نفسه مضطرًا للتنازل إلى أن وصل الأمر إلى أن أصبحت الثقافة السفاردية الدينية والشعبية موضع احتقار، وتحت شعار صهر المنفيين حاولت المؤسسة الإشكنازية محو هوية السفارد.

يقود الحاخام عوفاديا يوسف ثورة ضد هذا الوضع بشقيه الدينى والإثنى. فهو يود أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فيعيد المنهاج الدينى السفاردى إلى مكان القيادة، ويؤكد الهوية السفاردية. إن الحاخام عوفاديا يوسف يقود صراعًا حضاريًا تبدى فى تأسيسه لحزب شاس الذى أخذ

يتعاظم نفوذه فـى الخارطـة السياسـية الإسـرائيلية إلى أن حصـل علـى ١٧ مقعدًا فى الكنيست فـى انتخابـات ١٩٩٩، وبذلـك أصبـح ثـالث حـزب، ومنافسًا قويًا لحزب الليكـود علـى القواعـد الشـعبية الشـرقية التـى يرتكـز إليها، والتى حقق من خلالها بيجين ثورته الانتخابية عام ١٩٧٧م، حينما أسقط المؤسسة العمالية وحل محلها.

إن الحاخـام عوفاديـا يوسـف يحـاول تـأكيد الهويـة اليهوديـة الدينيـة الإثنية الشرقية، فصراعه الحضارى يتم على المستويين الدينى والإثنى. وهو لم يعـد يكتفـى بـأن يبـتز الحكومـات الإسـرائيلية المتتاليـة لتمويـل نظامـه التعليمـى أو مؤسسـاته الاجتماعيـة إذ نجـده يحـاول الآن أن يلعـب دورًا سياسيًا قياديًا بحيث يمكنه المشاركة فى السلطة حتى يمكن إعـادة تقسـيم الثروة القومية اليهودية.

ويتم التحـرك داخـل هـذا المنـاخ السياسـى العـام فـى إسـرائيل المشـبع بالتفكير العنصرى ضد العرب (خاصـة بعـد تصـاعد الانتفاضـة) وبـالخوف منهم. ولعل تخلى الحاخام عوفاديـا يوسـف عـن موقفـه القديـم بخصـوص «فداء النفس» هو محاولة من جانبه أن يثبت للجمهور الإسرائيلى أن حزبه الشرقى قد تأسرل (أى اكتسب الصبغة الإسـرائيلية، أى أصبـح إسـرائيليا) تمامًا وأنه بالتالى قادر على قيادة الدولة الصهيونيـة والهجـوم علـى العـرب يكسبه قدرًا كبيرًا من الشرعية.

والله أعلم.

فهرس

الموضــوع	الصفحة

الفصل الخامس: الانتفاضة

الفصل السادس: الهيكل

الفصل السابع: انهيار إسرائيل من الداخل

الموضــوع	الصفحة

الفصل الثامن: متفرقات

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٤٥٥٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6271-4

١/٢٠٠١/٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الصهيونية ظاهرة مركبة لها أبعاد كثيرة، فقد ظهرت كفكرة في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر، وتم بلورتها في منتصف القرن التاسع عشر، ثم ترجمت نفسها في البداية إلى المنظمة الصهيونية العالمية في أواخر القرن التاسع عشر، ثم أخيرًا إلى الدولة الصهيونية في منتصف القرن العشرين وهي دولة توسعية ضمت كل أراضي فلسطين، وقامت بغزو لبنان وظلت تحقق الانتصارات العسكرية حتى عام ١٩٦٧م، ثم بدأت تلحق بها الهزائم ابتداء بمعركة الاستنزاف وانتهاء بالانسحاب من جنوب لبنان مرورًا بهزيمة ١٩٧٣م والسقوط في «المستنقع اللبناني» على حد قول الصهاينة، وقد واجهت الصهيونية أشكالاً مختلفة من المقاومة العربية منذ عام ١٨٨٢م حتى الوقت الحاضر.

هذا الكتاب يلقي الضوء على العوامل التي تؤدي إلى انهيار إسرائيل من الداخل.

